طبعة منقحة



جنة الدنيا

الأسرة السعيدة

عثمان نوري طوباش



إسطنبول ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م

-طبعة منقحة-

إسطنبول ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م
اسم الكتاب باللغة التركية:
Dünyadaki Cennet HUZURLU ÂİLE YUVASI
اسم الكتاب: جنة الدنيا الأسرة السعيدة
ترجمة: محمد عز الدين سيف
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
الطباعة : مطبعة الأرقم
ISBN: 978-9944-83-638-8
Language : Arabic

العنوان:



▸ Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / Türkiye
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

جنة الدنيا

الأسرة السعيدة

عثمان نوري طوباش



مُقَدِّمَة

الحمد لله سبحانه وتعالى الذي فتحَ لنا أبواب محبته، إذ خلقنا من ذكر وأنثى وجعل المودة بينهما ينبوع سعادة لا ينضب.

والصلاة والسلام دائمًا أبدًا على مرشدنا وهادينا سيدنا محمد ﷺ أسوتنا الحسنة لحياة مطمئنة تجعل من قلوبنا أهلًا لمحبة الله سبحانه وتعالى لنا.

أما بعد، فإن المحبة قائمة في خِلقة المخلوقات كلها، وجوهر هذه المحبة المحبةُ الإلهيةُ. وقد أكرمَ الله ﷻ عباده بصنوف المحبة والمودة، وجعلها وسيلة وخطوة نحو محبته سبحانه، وجعل على رأس صنوف المحبة المحبةَ والمودةَ التي تكون بين الرجل والمرأة.

ومن أجل هذه المحبة والمودة جعلَ بيوت الأُسَر التي تُؤسَّس بعقد النكاح باسمه العظيم مكانًا تتجلى فيه البرَكات.

لذلك كانت الأسرة خطوة لا مناص منها لمحبة الله سبحانه وتعالى، وجُعِلَت قانونًا إلهيًّا لدوام النسل؛ أي إن جوَّ الأسرة حاجة للجسد وخطوة أولى للارتقاء المعنوي.

فصار الزواج في الإسلام الأصلَ، وحثَّ الدِّين المبين عليه، وكلُّ ما هو غير ذلك مناف لفطرة الإنسان، لأن الزواج سُنَّةٌ وحاجةٌ على الإنسان ألا يعزف عنها من غير عذر.

إن وضع حجر الأساس لأسرة كريمة أمرٌ عظيمٌ، ولكن لا بد من مراعاة موضوعات دقيقة ومسائل كبيرة كثيرة من أجل تحقيق المقاصد المطلوبة من الزواج وتحويل البيت إلى مكان تطمئن فيه القلوب.

وهنا نتساءل: ماذا علينا أن نفعل لحياة أسرية تغدو خطوةً إلى المحبة الإلهية؟ وإلى ماذا ينبغي أن ننتبه لكي تصبح بيوتنا منبع طمأنينة وسعادة؟ وكيف يجب أن نعيش كي تبقى رحلة حياتنا في الأسرة حتى خروج الأنفاس الأخيرة؟ وكيف لنا أن نكفل استمرارَ السعادة في الدنيا إلى حياة الآخرة؟

فجوهر الأمر كله مكنون في الأجوبة عن هذه الأسئلة. ولربما يصعب على المرء إيجاد الأجوبة الصحيحة لاختلاف الظروف والأحوال، لذلك وضعَ الإسلام الطرائق والأصول والقواعد والأسس التي توصِل الناس إلى مقاصد الزواج والنتائج المرجوَّة منه، وبيَّنَ العواقب السيئة التي تظهر لدى الخروج عمَّا وضعه.

وقد أكرمنَا الله تعالى بالأسوة الحسنة سيدنا محمد ﷺ لنصل إلى غايتنا المنشودة في هذا الشأن، أي إلى الأسرة السعيدة المطمئنة. فقد كانت لخاتم المرسلين الذي عاشَ حياةً لم تشُبْها شائبة قط أسرةٌ مطمئنةٌ بلغت الذروة في الفضيلة والكمال. لذلك علينا أن نطلع على دقائق حياته بين أهله ونقتدي بما كان يصنع في أهله حتى تكون لنا أسرة طيبة على منواله.

وإلا اضطرب المجتمع الذي نعيش فيه وحُرِمَ من البيوت التي تَسُود فيها الطمأنينة والبركة.

ونرى جميعًا أن كثيرًا من الشباب الذي لم يستطيعوا بناء أسرة سليمة متوازنة تسْوَدُّ حياتهم وحياة أولادهم بالطلاق غير المبرر. والأخطر والأنكى من ذلك أن كثيرًا من الغافلين يعزفون عن الزواج فينجرون إلى الموبقات.

وهذا الكتاب الصغير الذي نضعه بين أيديكم وقد أعددناه لهذا السبب وغيره من الأسباب سيصبح إن شاء الله البلسمَ الشافي لجراح الأُسَر في مجتمعنا مثلَ غيره من الكتب في هذا المجال.

وانطلاقًا من هذه النية السليمة إن شاء الله، جعلنا الكتاب في أربعة فصول تحت العناوين التالية:

١. النكاح والأسرة في الإسلام.

٢. الأمور التي ينبغي للمرأة مراعاتها في الأسرة.

٣. الأمور التي ينبغي للرجل مراعاتها في الأسرة.

٤. الأمور التي ينبغي للرجل والمرأة مراعاتها في الأسرة.

والكتاب في الأصل مجموعة من اللقاءات الصحفية التي نُشِرَت في مجلة (شبنم) مع إضافة وتوسعة لبعض من الموضوعات.[1]

وضعنا فيه بإيجاز ما يلزم لتأسيس أسرة مطمئنة على أسس إسلامية، وشرحنا القواعد والمبادئ اللازمة

١ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما بذله طالبنا النجيب عمر فاروق دمير أشيق في إعداد هذا الكتاب والأستاذ محمد علي أشملي في تصحيحه وتوسعته صدقةً جاريةً في ميزان حسناتهما.

لبلوغ المقاصد السامية من الزواج، وأرفقنا شرحنا بأمثلة من حياة عظماء ديننا الحنيف وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ، فقدَّمنا بذلك لقرَّائنا الأعزَّاء رؤيةً واضحةً في هذا الموضوع المهم.

وندعو الله سبحانه وتعالى أن يُفيدَ هذا الكتاب مَن أسسوا أُسَرًا والشبابَ المقبِلين على هذا العمل العظيم.

اللهم أكرِمنَا بالقدرة على تأسيس أُسَرنا وإعالتها بقوة لا تتزعزع في هذه الأيام التي نرى فيها البيوت في أنحاء العالَم تتضعضع بزلازل الفجور والإهمال والكراهية! واجعل بيوتنا جنةً من المحبة والطمأنينة والسعادة! وافتح لهذه الجنة بابًا إلى جنة الخلد التي يتجلَّى فيها الوصال بجمالك يا ذا الجلال! آمين.

عثمان نوري طوبَّاش

١٤٣٥/ ٢٠١٤

أسكدار– إسطنبول

النكاح والأسرة

في الإسلام



النكاح نهج الأنبياء، وسنة رسول الله ﷺ، وربيع الأجيال، وقلعة الشرف والأدب والعفاف والعفة للرجل والمرأة، وامتاز به الإنسان عن المخلوقات الأخرى.

النكاح والأسرة في الإسلام

شيخنا الكريم، تُعقَد في أيامنا كثير من الندوات والمحاضرات لمناقشة موضوع الزواج. أودُّ في البداية أن أسألكم: هل البشر مُضطَّرون إلى تأسيس أُسَر والعيش في جماعات؟ ألا يستطيعون العيش فُرادى؟

إن الوحدانية لله سبحانه وتعالى وحده، لأنه الخالق العظيم، خصَّ نفسه بالوحدانية، وخلقَ جميع المخلوقات أزواجًا، لذلك تحتاج بعض المخلوقات إلى بعض بناءً على صفة الزوجية. والمخلوق في عجز ونقصان من حيث بُنيته؛ أي إن جميع المخلوقات التي خلقها الله تعالى تسعى لتلبية حاجات كثيرة، لذلك يحتاج بعضها لبعض أبدًا، وتحتاج جميعها إلى خالقها الذي خلق كل شيء من عدم.



ويأتي «الإنسان» بين هؤلاء المخلوقات في المقام الأول من حيث حاجته للآخر، لأن حاجات الإنسان ورغباته أكثر إن قُورِنَت بالمخلوقات الأخرى، وحاجاته هذه في زيادة دائمًا ولا تنتهي. فالإنسان يريد أن يعيش في راحة مادية ومعنوية كل حين، ويستصعب المشقة والفقر والبؤس والمعاناة والمصيبة، فيبحث حينئذ عن يد يمسك بها و قلب يأوي إليه.

ونذكر هنا أن كلمة «إنسان» مُشتَقَّةٌ من «الأُنس» أو «المؤانسة»، فهذه علامةٌ على أن الإنسان يحتاج إلى مصاحبة الكائنات الأخرى لا سيما مَن هم مِن بني جنسه. وهذه الحاجةُ السمةُ الأولى للإنسان، وكأنه يُعرَف بها.

وتظهر هذه الحقيقة في أوضح أشكالها باجتماع الرجل والمرأة، فهو ضرورة، بل شرطٌ لا بُدَّ منه لضمان استمرار النسل.

وتجلَّت هذه الضرورة في الكائنات الحية الأخرى على صورة الذكر والأنثى، أما في التركيبة الكيميائية للجمادات فتجلت على شكل الموجب والسالب. وقد وردَ هذا الموضوع في آيات القرآن الكريم، إذ يقول الله ﷻ:

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2]

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ومِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ [3]

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [4]

إن المقصود من كلمة «زوجَين» المذكورة في هذه الآيات الكريمة هو خلق كل شيء في صورة «ذكر وأنثى» أو «سالب وموجب» على النحو المذكور أعلاه، وليس يعني خلق اثنين من الشيء نفسه، وإلا لكان خلقُ أحدهما عبثًا، ولكان يتناقض مع معنى اسم الله «المتعال». فالله سبحانه وتعالى خلقَ من كل شيء زوجَين، ولم يخلق توأمَين يتشابهان تشابهًا تامًّا؛ فالتوأمان اللذان يُولَدَان من بيضة واحدة يختلفان كثيرًا من طبعهما وخُلُقِهما حتى أعينهما وأطراف أصابعهما.

وصفوة الكلام أن الله ﷻ خلق المخلوقات أزواجًا، ووضع قانون الجذب والتجاذب كي يقترب بعضها من

٢ الذاريات، ٤٩.

٣ يس، ٣٦.

٤ النبأ، ٨.

بعض، فربطَ بذلك كمال المخلوقات المادي والمعنوي باجتماع بعضها مع بعض.

ونفهم من هذه الحقيقة أن حاجة الرجل لامرأة وميله إليها وحاجة المرأة لرجل وميلها إليه إنما هي في الأصل حاجةٌ لضمان استمرار النسل. إلا أن هذا ليس الغاية الوحيدة، لأن الأسرة المتينة الروابط والمودة والسكينة وطمأنينة القلب بين الأفراد هي غاية عظيمة أيضًا، ولا يمكن بلوغ ذروتها إلا بـ«محبة الله»، أي بتوجه القلب بالحُبِّ إلى الحق سبحانه وتعالى، ومَثَل ذلك مَثَل الرحلة من ليلى إلى المولى...

أي إنَّ ليلى- إنْ جاز التعبير- شرطٌ لهذه الرحلة، لأن المحبة بين الرجل والمرأة هي المرحلةُ الأولى لنيل رضا الحق سبحانه وتعالى بمحبته. فالمحبة حتى لو بدأت بأهواء النفس، فهي لن ترْقَى إلى حال «العشق» ما لم تتجاوز تلك الأهواء، والعشق اسم تجاذب التجليات الإلهية التي تكون على المُتحابِّين.

وكأن القلب الذي هو مركز الجذب يستعد بالمحبة بين الزوجَين حتى يكون قادرًا على محبة الله، وتزداد

هذه القدرة بالأبناء الذين هم الثمرة الطبيعية للأسرة، وعندئذ يغدو القلب أهلًا لمحبة الله.

ولا بد أن يكون الزواج كما أمرَ الله تعالى حتى تحيط محبةُ الله بالقلب من كل جانب. والزواج إنْ قصُرَ على الرغبات والنزوات والميول العقلية والنفسية فلا يُثمِر محبة في أغلب الأحيان، لذلك لا ينال صاحبه النضجَ المعنوي والمحبةَ المرجوة في القلب من مثله، أي لا ينتفع القلب كما ينبغي؛ لأن الزوجَين حينئذ يمسيان عبدَين لشهوات النفس. ولا يقتصر الأمر على انعدام الترقي والنضج المعنوي، بل إن القلب يضيق ويمسي كأرض قاحلة وقد ينحط إلى أدنى الدركات في الأخلاق.

إن الزواج الذي يكون وسيلة للنضج والارتقاء المعنوي أي لإكمال نصف الدين يبيِّن الدرجة العليا التي ينبغي الوصول إليها. وإذا كان ما لا يُدرَك كلُّه، لا يُترَك جُلُّه، فكذلك ينبغي للمرء ألا يدَّخِر جهدًا في سبيل الوصول إلى تلك الدرجة، كُلٌّ على قدْر طاقته. وبهذا وحده يمكن الوصول إلى المودة والسكينة والنضج المتوقَّع من الزواج.



وليس الارتباط بين الرجل والمرأة السببَ الوحيد والفريد حتى يكون المرء أهلًا لمحبة الله ﷻ، ولو كان الأمر كذلك لعجزَ العازب عن بلوغ أي ترقٍّ معنوي، ولنا في السيدة مريم[5] وعيسى عليهما السلام المثل في هذا الشأن.

ويُظهِر لنا هذا اختلاف بُنية كل إنسان من حيث خَلقه، وتباين الظروف الخارجية التي تؤثر فيه. أي إن الله تعالى وضعَ لكل إنسان قدَره في ظروف الدنيا التي هي دار ابتلاء، فمِن الناس مَن لم يُكتَب له الزواج، ومنهم مَن لديه أحوال تمنعه من الزواج، ومنهم مَن صار الزواج له خسارة كبيرة وألمًا شديدًا. فإنْ صبرَ أمثال هؤلاء، مَنَّ الله عليهم بقدرة تجعلهم ينالون النفع العظيم أو حتى نفعًا أكثر من

٥ لقد ذُكِرَ اسم السيدة مريم ٣٤ مرة في القرآن الكريم و٢٣ مقرونًا باسم عيسى. وسُمِّيَت السورة التاسعة عشرة من القرآن الكريم باسم «مريم». والسيدة مريم المرأة الوحيدة التي ذُكِرَت باسمها في القرآن الكريم. ويلفت المفسرين النظر إلى بعض الحِكَم في هذا الشأن، منها:

* رُفِعَت صورة المرأة المُحتقرَة آنذلك في شخص السيدة مريم.
* ذُكِرَ نبي من أولي العزم منسوبًا إلى أمه، وفي هذا إشارة إلى عظمة الأمومة.
* إيضاح مدى أهمية فرض حفظ العفة بلفت الانتباه إلى عفة السيدة مريم.
* توضيح أبرز الخصال للمرأة الصالحة بذكر خصال السيدة مريم، وأن صفات العفة والوقار والصبر والتوكل والتسليم والثبات تُعظِّمُ من شأن المرأة عند الله سبحانه وتعالى.

الذي يجنيه المرء بالزواج. فثمة أناس لم يعرفوا الزواج ولكنهم بلغوا قمة النضج والارتقاء المعنوي بمحبتهم المفرطة للحيوانات والنباتات، أو بصبرهم على المصائب والشدائد والابتلاءات، كأصحاب الصُفَّة في عصر النبي عليه أفضل الصلوات. ولا شك أن الأحوال التي نذكرها أحوال استثنائية، لأن المفروض على الإنسان المُقتَدر أن يتزوج بعقد النكاح ويؤسس أسرة سليمة.

والحقُّ أن القلب الذي ليس فيه محبة كالأرض البوار، والعلاقةُ بين الرجل والمرأة تُصلِح هذه الأرض، ليس بأهواء النفس بلا شك، بل بإزالة تلك الأهواء؛ أي ينبغي أن تؤدي هذه العلاقة إلى محبة الله، فالمحبة بين الرجل والمرأة لا ترتقي إلى محبة الله في القلب إلا إذا أدَّت إليه. وإن يُقدَّر للزوجَين ولدٌ عندئذ، ينتقل القلب إلى المرحلة الثانية في طريق محبة الله سبحانه وتعالى. ثم يتبع محبةَ الولد محبةُ الأصحاب والخِلَّان وغيرهم، فينتقل القلب من مرحلة إلى أخرى، ويخطو خطوة تلو الخطوة حتى يبلغ المقصود وهو محبة الله، ويصبح حينئذ صاحبه مِمَّن يحبُّهم الله سبحانه وتعالى، ويصل إلى الغاية من خلق الإنسان.



والخلاصة أن الأسرة هي الاسم الديني والاجتماعي لاجتماع الرجل والمرأة، وهي حقيقة وضرورة جُبِلنا عليها من أجل بلوغ هذه الغاية السامية. وكلما قرُبَ بلوغُ الغاية، كبرت شجرة الأسرة وأثمرت ألذ الثمار، منها الطمأنينة والأمان والسكينة والنظام في المجتمع.

ومن هنا نفهم أن الأسرة المطمئنة ضرورةٌ لوصول المجتمع إلى المستوى الحضاري ودخول الفرح والسرور في البيوت. لذلك يتعاهد الرجل والمرأة باسم الله أثناء تأسيس الأسرة، وهذا العهد إنما هو السعي لبلوغ المحبة التي تقتضيها الغاية من خلقهما، ولا شك أن الداعم لهذا السعي الاحترامُ والثقةُ والإخلاصُ بينهما.

كيف ينظر الإسلام إلى الأسرة؟

يولي الإسلامُ أهميةً عظيمةً للأسرة، فهي بذرة المجتمع. ومن الحقائق التاريخية أن الأُسَر سليمة الأساس تحمي المجتمع، أما الأُسَر التي تُؤسَّس بعلاقة فاسدة أو لا يتكافأ فيها الزوجان من الجانب الروحاني، فهي أُسَرٌ تهدم المجتمع.



فالإسلام يضع الأسس لأسرةٍ سعيدة متوازنة بقواعد المحبة والحقوق التي شرَّعها، أي إنه يبتغي بالأسرة الطمأنينةَ والسعادةَ.

وقد قيل: «جنة المرء بيته». فإذا أُسِّسَ البيتُ كما أمرَ الله تعالى، صار كجنة في الدنيا. ويبدأ الإسلام هذا الأمرَ بعقد تعاهد فريد هو عقد النكاح، لأن مثل هذا البناء العظيم لا يكون إلا بأسس مشروعة قائمة على المحبة والمبادئ السامية؛ أي إنه يشترط على كلا الطرفَين أن يتعاهدَا أمام الله وباسمه.

وكلُّ علاقة بين رجل وامرأة خارج إطار النكاح تؤدي إلى الخسارة والندامة على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع لأنها مناقضة للغاية من خلق الإنسان. لذلك حُرِّمَ كلُّ اجتماع بين رجل وامرأة من غير عقد نكاح وجُعِلَ من الموبقات التي يستحق مرتكبها عذابًا أليمًا.

هلَّا توضِّحون موضوع النكاح أكثر بناءً على أهميته؟

إن النكاح نهج الأنبياء، وسنة رسول الله ﷺ، وضمان النسل، وشرف الرجل والمرأة وأدبهما، وقلعة العفاف والعفة، وبه امتاز الإنسان عن الحيوان.



ووجوب الشاهدَين من الرجال في عقد النكاح إنما هو لتبليغ الناس أن هذه العلاقة بين الرجل والمرأة صارت مشروعة في الدين والمجتمع. فالبِكرُ يمكن أن تُخطَب في كل وقت، لكن لا يبقى مجال لخطبتها بعد إعلان زواجها بعقد نكاح، ويرسي الزوجان حينئذ أوتاد أسرتهما. ولا يُكتفَى بالشاهدَين، بل يُدعَى الجميع إلى عرس ليكونوا هم أيضًا شهودًا على عقد النكاح. فالغاية من الأعراس مشاركة الزوجَين فرحتهما، وإعلان عقد النكاح للجميع في الوقت نفسه.

فالنكاح بجميع مميزاته وخواصه قانونٌ إلهيٌّ أُمِرنا به لصون كرامة الإنسان ورفعة شأنه. والنكاح في الإسلام أساس لا غِنى عنه من أجل إدامة النسل وتربية الأولاد وحماية الأسرة وحفظ شرف الإنسان.

ويولي الإسلام أهميةً كبيرةً لهذا الأساس، فيرفض أي علاقة سيئة قد تفسده، لذلك يُحرِّم الزنا ويجعله من الكبائر. فهذا الفعل القبيح يُعَدُّ اعتداءً على جمال النكاح ومشروعيته وأبشع جريمة تدمِّر النسل. وليس ثمة حماقة أشد من استبدال النكاح وما يجلبه من سعادة وطمأنينة بقباحة الفاحشة.



إن الأُمَّة الفاضلة لا يمكن أن تأذن بتحويل شوارعها وأزقتها لأماكن تنتشر فيها الرذيلة، ولا بجعل ساحاتها وميادينها مراتع للفجور ومساوئ الأخلاق.

وعلينا ألا ننسى أن الذي يحفظ الأمة بناءُ الدين والأخلاق، وأن النكاح أعظمُ وسيلة لوضع هذا البناء وصونه. ويحذِّر النبي ﷺ أمَّته من تعسير النكاح فيقول:

«خير النكاح أيسره» [٦]

لذلك يُعَدُّ أي فعل يُعسِّر عقد النكاح وليس له أساس في الدين عادةً باطلةً لا تذكِّر الناس إلا بعصر الجاهلية.

إن الله ﷻ يريد لعبده حياة عفيفة مطمئنة، والزواج أفضل عمل يحفظ العفة. وإذا كان على المقتدر أن يتزوج، فمن واجب المجتمع الإسلامي أن يزوِّج أولئك الذين لا يقدرون على الزواج. يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٧]

٦ أبو داود، النكاح٣٢، ٢١١٧.

٧ النور، ٣٢.

فنِعمَ المجتمع المجتمعُ الذي لا يقصِّر في هذا الشأن، لأن نظام المجتمع وأخلاقه وثيقُ الصلة بعيش أفراده عيشةً عفيفةً مطمئنةً.

وقد حثَّ محيي الدين بن عربي رحمه الله على الزواج وقال في فضيلة تقديم العون لمَن يريد الزواج:

«خير صدقة جارية أن تكون وسيلةً للزواج، لأنك تُؤجَر على كل عمل صالح تأتي به ذريةُ مَن أعنته في زواجه».

فحياة الأسرة التي بدأها سيدنا آدم عليه السلام في الجنة مع زوجته حواء انتقلت إلى بَنيه بقانون الزواج الذي قدَّره الله عز وجل، وصارت بدين الإسلام قائمةً إلى قيام الساعة. والحقُّ أن الإسلام بتشريعاته صار لحياة الأسرة مصدرَ طمأنينة سماوية ونفحات رحمة قدسية. ولا بد للوصول إلى السعادة المنشودة أن يرى كلٌّ من الزوجَين في نفسيهما آدمَ وحواء بقانون الزواج، فيعيشَا معًا في طريق التقوى ومحبة الله حتى يصيرا كأنهما على قلب واحد.

ولنا في تعايش الغريبَين بالنكاح تعايشًا عجيبًا دروسٌ عظيمةٌ وحِكَمٌ بليغة تُحيِّر الألباب. فما أبلغ



الحِكَمة وما أعظمَ الدرس في ارتباط قلبَي الزوجَين بالمودة والرحمة التي وضعها الله بينهما وقد غادرَا أهلَيهما، وفي عيشِهما في ودٍّ ووئامٍ كأن كلًّا منهما قد خبرَ الآخرَ أمدًا طويلًا.

لقد جعل الله تبارك وتعالى النكاحَ وسيلةً للبركة على أمة محمد ﷺ، وجعل الزواج على كتابه وسُنَّة نبيِّه جنةً من السعادة في الدنيا.

أراد دين الإسلام للإنسان عيشةً كريمةً شريفةً، وعظَّم شأنَ المرأة وأشار إلى الأضرار التي تنجم عن إهمالها. فمَثَل المرأة كمثل المصباح المعلَّق في سقف الأسرة السعيدة المطمئنة، تحمي شرف الأسرة وتُضيء المجتمع بنور النكاح. وينبغي للمرأة أن تكون كالحاجز المنيع أمام سيل الذنوب والآثام، وإلا ضاعت الأجيال، وإذا ضاعت، زالت أواصر القرابة والمصاهرة، وانهار المجتمع، ثم ظهرت الفتنة عندئذ وانتهت الرِّقة واللطافة، وطغت الفوضى والرذالة، وهذه علامات على أفول نجم المجتمع وفساده.

تفرح المرأة حين تعيش سيدةً محترمةً في بيتها، فإذا خرجت إلى غير واجبها الأساسي، انطفأت شعلة

الأسرة. ولا يكون عمل المرأة خارج بيتها إلا في أعمال تليق بفطرتها ولضرورة، وهذه الضرورة تُقيَّم بموضوعية، أي توضَّح وفقًا لحاجة المجتمع وفي حدود معقولة ومشروعة. وكلُّ ما جاوزَ هذه الحدود اتباعًا لأهواء النفس ونزواتها ما هو إلا خداع للنفس عاقبته الخسران المبين. فكم من بناتنا وقعْنَ في هذه الغفلة وضِعْنَ! وكم من العيون اغترَّت ببريق الرذائل، فعميَت عن رؤية الحقائق الإلهية وقضَت على سعادتها!

وينبغي أن نعلم بأن النساء في نظر الإسلام إكسير الحياة الذي يتلألأ داخل مصباح النكاح، وأن هوية المرأة الأخلاقية والاجتماعية لا تتشكل إلا من خلال حياتها داخل روحانية النكاح، وأن المرأة تدخل في عالَم جديد في ظل البيت الذي بُنيَ بالنكاح. إذ ربما تبدأ حياةً مع رجل تجهله تمامًا، ومع أفراد أسرته. لكن ثمة سمة مميزة زيَّن الله بها الزواج، ألا وهي أن الزوجَين اللذَين اجتمعا معًا في ظل النكاح يصبح كلٌّ منهما أقرب إنسان للآخر في لحظةٍ واحدةٍ، وقد كانا من قبل غريبَين، ويجدان في البيت الجديد طمأنينةً لم يعهدَاها في البيت الذي تربَّيَا فيه. يقول ربنا سبحانه وتعالى:



﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [8]

إذن ينبغي أن تكون المودة والإخلاص والرحمة بين الأزواج العنصرَ الوحيد المسيطر من أجل سعادة الأسرة.

من العسير نيل هذه السعادة في كل أسرة. فالوصول إلى هذه السعادة نعمة كبيرة... فإلى ماذا ينبغي الانتباه من أجل بلوغ هذا الهدف؟

إن الشرط الأول مراعاة القواعد التي وضعها الإسلام في اختيار الزوجة من أجل تأسيس أسرة مطمئنة. وجوهر هذه القواعد: ألا يختار المُقدِم على الزواج زوجته انطلاقًا من أسباب مؤقتة تُعجِب النفس مثل الجمال والغنى، بل لا بد أن يولي أهميةً للإيمان والأخلاق. يقول سيدنا رسول الله ﷺ في هذا الشأن:

«تُنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدِّين ترِبَت يداك» [9]

---

٨ الروم، ٢١.

٩ البخاري، النكاح، ١٦؛ مسلم، الرضاع، ٥٣.



يشير هذا الحديث الشريف إلى ما ينبغي تحرِّيه في المرأة انطلاقًا من حقيقة أن الذي يبني العُش أنثى الطير، ويشير أيضًا إلى ما ينبغي تحرِّيه في الرجل، لأن أعظم كنز للمؤمن أو المؤمنة بعد التقوى أن يكون زوجه صالحًا. فالرجلُ الصالحُ عمود لا يتزعزع في قصر الطمأنينة، والمرأةُ الصالحةُ أعظم زينة في حديقة السعادة.

ولا بد من الحرص على التكافؤ بين الأُسرتَين، وهذا التكافؤ يكون بمراعاة أمور مختلفة مثل الغنى والمستوى الاجتماعي والثقافي.

ثم يتعلق الأمر بالنضج والإرادة، والنضج يتحقق بكمال الإيمان والعمل، أما الإرادة فباتباع أوامر الشريعة واجتناب المحرمات.

إن الأسرة السعيدة التي تُراعَى فيها أوامر الله وتُجتنَب نواهيه هي أساس سعادة الدنيا، وأحد أعظم نِعمَ ربنا سبحانه وتعالى، واستمرار هذه النعمة يكون بتعايش الطرفين في جو من الروحانية، أي إنه مرتبط بالتضحية والتفاهم بين الطرفَين.

ويأتي «تشبه الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل» على رأس الأسباب التي تؤدي إلى انهيار الأسرة في وقتنا



الحاضر. فقد أنعم الله تبارك وتعالى بصفات للرجل وصفات للمرأة، وهذه الصفات توافق واجبات كلٍّ منهما في المجتمع والمسؤوليات التي ألقاها الله عليهما. وهذا ما يظهر جليًّا في جوانب القوة والتحمُّل والخصائص الجسدية في الرجل الذي وُكِّلَ بوظيفة إعاشة الأسرة.

ولم تُسند إلى المرأة أي مسؤولية تتعلق بمعيشة الأسرة. ولو كانت حُمِّلت ذلك لكان عذابًا ومشقةً عليها، لأن خِلقتها لا تتوافق مع معركة الحياة. فأولًا وقبل كل شيء أُسندت إليها وظيفةٌ إلهيةٌ تقتضي عطفها، مثل ولادة الأطفال الذين هم ثمرة لقاء الزوجَين ورعايتهم وحمايتهم في مراحل الصغر الأولى بدءًا من الولادة. لكن لا ضير في عملها إذا كان في وظيفةٍ مشروعة توافق طبيعتها، وتكون هذه الوظيفة في خدمة النساء، مثل تعليم البنات القرآن الكريم وغيره من الوظائف.

إن جميع صفات الخِلقة التي وضعها الله تعالى تُكسِب المرأة والرجل هويةً مختلفةً، فيُكمِّل أحدهما الآخر، أي إن سعادة الأسرة تقل حين تبتعد الزوجات عن هويتهن.



وهنا لا بد أن ننبِّه إلى أمر، وهو أنه ينبغي ألا تُفهم سيطرة الرجل في الأسرة على أنها «تحكم» ولا طاعة المرأة على أنها «أسْر». فإذا أدى الرجل والمرأة دورهما كما قرَّر الإسلام، فلن يكون في الأسرة «ظالم» أو «مظلوم» ...

إن ظلم المرأة لزوجها يكون بخروجها عن إطار العفة والطاعة. واستخدامُ الزوج سيطرته في سبيل رغباته الأنانية يهدم الأسرة. والرجل الذي هو مأمورٌ بالكدِّ والكفاح في الحياة قد يتعرَّض للمشقات والتوتر، فله في مثل هذه الأحوال الحقُّ، لا بل الحاجة إلى طاعة زوجته له برأفة ومحبة. والمرأة التي تنتظر زوجها في بيته حتى المساء من الطبيعي أن يكون لها الحق والحاجة إلى شعورها بالاهتمام من زوجها. فعلى كل طرف في الأسرة أن يعرف حقوقه وواجباته التي كلَّفه الله بها، وينبغي أن يكون الرجل في الأسرة رؤوفًا رحيمًا والمرأة مطيعةً محترمةً.

وصفوة الكلام أن الأساس الذي يجعل أي أسرة في جوٍّ دائم من الهدوء والسعادة هو الحب والاحترام المتبادل. لكن يجب أن نعلم بأن أنثى الطير تبني العش،



لذلك كانت المرأة أشد تأثيرًا في حماية بيتها وصونه، ففراستها وسعيها وتضحياتها أعظمُ من فراسة الرجل وسعيه وتضحياته، لأن الحق تبارك وتعالى قد وهبَ الأم قدرة إحساس أكبر من الرجل في هذا الجانب.

ومن هذا المنطلق قال المفسِّر إسماعيل حقِّي البورصوي في تفسيره لكلمة "الترائب" في الآية السابعة من سورة الطارق:

«لو وقع صغير في سيل، فإن الأم ترمي بنفسها أيضًا فيه على شدة خطره، وتضحي بروحها من أجل إنقاذ صغيرها، أما الأب فلا يستطيع أن يفعل فعلها، وإذا قطع الأمل بإنقاذ صغيره، اكتفى بالبكاء على جانب السيل».

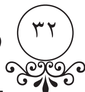
وهذا بلا شك يكون في الأمهات اللواتي حافظن على الجوهر في خلقتهن، لأننا نجد أمهات ليس لهن أي ضمير، فتترك الواحدة منهن صغيرها قرب مسجد أو قبر، فأمثالهن انعدمت فيهن الصفات السامية الموجودة في خلقتهن، وأمست قلوبهن خرابًا.

والمرأة في الأحوال الطبيعية لا تستطيع أن تفرِّط بولدها بأي شكل من الأشكال، وهذا الحسُّ السامي

حقيقةٌ تُرَى حتى في الحيوانات، والأمثلة لذلك كثيرة، منها ما شوهِد أثناء تصوير فلم وثائقي:

إذ شهدَتْ حديقةُ الحيوانات الطبيعية في «سامبورو» بـ»كينيا» بين تاريخ ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١ و١-٢ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢ علاقةً محيرةً بين لبوة وظبي صغير. وكان أول ما عكسته الكاميرات رأفة اللبوة بظبي صغير لا يزال الحبل السري معلَّقًا به. لم يكن الظبي الصغير يفارق اللبوة التي كانت تسعى لإطعامه ورق الشجر لأنها لا تستطيع إرضاعه. ولم تكن تطعمه اللحم لأنها تدرك أنه صغير الظبي. وقد كفَّت عن الخروج للصيد من أجل رعاية الظبي الصغير، ومع ذلك كانا بصحة سليمة.

ثم جاءت أم الظبي تبحث عن صغيرها، فاندهشت حين رأت صغيرها في رعاية اللبوة، ولم تستطع أن تقترب، لكنها لم تغادر المكان، بل ظلت تتفاهم مع صغيرها بإصدار أصوات من بعيد. ثم صار الظبي الصغير يرعى مع أمه ولكن تحت مراقبة اللبوة، لأنها اعتادت تمامًا عليه، فما كانت ترضى أن يبتعد عنها، وتتدخل إذا ما ابتعد صغير الظبي كثيرًا. كانت اللبوة



تحب الظبي الصغير، فتمسح عليه بلسانها، وتلعق أذنه، وتلعب معه بمسح رأسه. وفي النهاية غُلِبَت اللبوة أمام شعور الظبي بأمه فتركته، وقبل أن تودِّعه صارت تشمه، وتداعبه، وتحك جلدها بجلده وهي حزينة. ولكن يشاء قدر الله أن يرى أسدٌ ذلكَ الظبي الصغير العاجز عن الدفاع عن نفسه مع أمه فيفترسه. ولمَّا رأت اللبوة ذلك، تأثرت فراحت تحني رأسها وتشم دماء صغير الظبي في المكان الذي افتُرِس فيه، وكأنها تبكي في أعماقها وتذرف الدموع عليه.

هذه الحادثة التي سجَّلتها الكاميرات مثال مدهش، وهي تجلٍّ لصفة الأمومة في أسمى درجاتها، وهي حادثة بين حيوانَين عدوَّين. وهذه إحدى الآيات العظيمة للحق ﷻ. إنها لَمعجزة إلهية تجلَّت في صفة الأمومة.

وثمة هنا حِكَم وعِبر عظيمة لنا، فالأم ليست أُمًّا بالصفات الجسدية وإنما بالصفات الروحية السامية. والمرأة إذا فقدت هذه الصفات، أي أنوثتها وأمومتها، فلا تكون رمزًا للرأفة، بل تغدو مثل صياد لا رحمة في قلبه، وتستطيع أن تقضي على كثير من الصغار. من أجل ذلك ينبغي أن تحتفظ النساء بكنز الأمومة هذا



أكثر من المخلوقات الأخرى، إذ لا توجد محاسبة للمخلوقات الأخرى في عالم الآخرة على صغارها. أما الإنسان فسيُحاسب، أي إن الأبناء سيكونون وسيلةً للخير أو الشر لأمهاتهم يوم المحشر، من أجل ذلك كان أعظم الأمومة وأسماها تربيةُ الأولاد تربيةً تحفظهم من نار جهنم وجعلهم يعيشون حياة تُدخِلهم الجِنان في الآخرة، ولذلك كان التعليم الديني والأخلاق الطيبة على رأس الواجبات.

شيخنا الفاضل، إن المقبلين على الزواج في مجتمعنا يجعلون مدةً حتى الزواج يسمُّونها «الخِطبة»، فتظهر مشكلات كثيرة في هذه الأثناء، فما الأمور التي ينبغي أن يدركوها في موضوعات مثل اللقاءات والتجول خارج البيت وغيرها؟

إن تأسيس الأسرة على أسس سليمة لا تتزعزع هو الأمر الذي سعينا لشرحه منذ البداية، والسبيل إلى ذلك مراعاة أوامر الله ونواهيه في كل مرحلة من البداية إلى النهاية، وليس في الخطبة فقط. ولكن يؤسفنا أن نرى أخطاءً في هذه المرحلة يصعب إصلاحها، لأن الطرفَين يتصرفان في الخطبة وكأنهما متزوجَان فعلًا.

ينبغي أن نعلم بأن مرحلة الخطبة تعهُّدُ الطرفَين بالزواج، أي إن هذه المرحلة ليست مثل مرحلة النكاح، فكُلِّ طرف في هذه المرحلة مُحرَّمٌ على الآخر، أي إن حاجز الحرام موجود بينهما، من أجل هذا ينبغي الانتباه لحدود الحلال والحرام هنا، ولا يجوز خلوة الطرفَين بغير عقد نكاح.

وماذا تريدون أن تقولوا في موضوع حفل الزفاف؟

إن الزفاف في الزواج وسيلةٌ للفرح مع الأقارب والأصدقاء، وهو إعلان النكاح للناس، وغايته الفرح والسرور بأمر عظيم الأهمية، وهو تأسيس أسرة لضمان استمرار نسل الإنسان الذي يُعَد من مقتضيات الفطرة.

لكن ينبغي أن نوضِّح أن الإسراف في حفلات الزفاف إسرافًا يمسي وسيلةً لخراب الأُسَر هو أمرٌ لا يقبله الإسلام، فهذا الدين ينهى حتى المتوضِّئ عن الإسراف في الماء الجاري ويحث على الاعتدال. فينبغي للطرفين حتى وإن كانا من الأغنياء أن يتعاهدا على الوسطية وذلك بذِكر أحوال المستضعفين والمحرومين في المجتمع الذي يعيشون فيه.



إن تحويل حفلات الزفاف مثل التي يقيمها كثير من الأغنياء في زماننا إلى مظهر للأبهة والتفاخر دليلٌ على جنون الإسراف، وعلى أن الإسلام لم يُستوعَب كما ينبغي.

ينبغي أن تكون حفلات الزفاف في جوٍّ من اللباقة والظرافة، خاليةً من الإسراف والتفاخر والتبجح. وينبغي أن يقيم كلّ متزوج مراسم زواجه وفقًا لقدرته المادية. أما السعي لإظهار القدرة المادية فيقضي على الغرض من حفلات الزفاف وروحانيتها.

إن الخطو على سبيلٍ خيِّر مثل الزواج خطوةً ببداية سيئة، وذلك بالأفعال والعادات الخاطئة التي تتعارض مع أوامر الله هو وقوع في الجهل والخسران. أما مجالس النكاح التي تُطبَّق فيها أوامر الله سبحانه وتعالى وتطابِق قواعد الأخلاق فتكون مباركةً، وهي الأماكن التي يُقبَل فيها الدعاء.

ومن الجائز المرح والترفيه الحلال على شرط ألا يكون هناك اختلاط بين النساء والرجال.

وينبغي أن يُدعى الفقراء والمساكين إلى الوليمة التي هي سُنَّة عظيمة، لأن النبي ﷺ قد نبَّه إلى هذا الأمر حين قال:

«بئس الطعام طعام الوليمة يُدعَى إليه الأغنياء ويُترَك المساكين»[10]

وعلينا أن نعلم أن عون الله ينزل بدعاء الضعفاء، لذلك يُخَصَّون بالدعوة إلى طعام الوليمة. وعلينا أن نذكر أن موسى سبحانه وتعالى التجأ إلى الحق سبحانه وتعالى، فسأل: «يا رب! أين أبغيك؟» فقال الله سبحانه وتعالى: «اِبغني عند المنكسرة قلوبهم!»

لأن دعاء المساكين والمنكسرة قلوبهم مُستجاب عند الله تعالى، فينبغي طلب دعائهم لا سيما في المناسبات المهمة مثل الزواج الذي تُوضَع فيه أُسس الأسرة. وينبغي أيضًا عدم إهمال طلب دعاء الصالحين والصالحات.

شيخنا الفاضل، ما الأمور التي على الزوجَين الانتباه إليها كي يضمنَا سلامة أسرتهما؟

ينبغي أن نعلم بأن الأمم ترتقي برجالها، لكن المرأة تكمِّل هذا الارتقاء. وكما أنه لا يمكن التقدم بغير الرجل، فلن يحدث تقدمٌ ورُقِيٌّ بغير المرأة، وإن حصلَ، يكون ناقصًا. لذلك لا يستطيع الرجل أن ينجح في عمله في

١٠ البخاري، النكاح، ٧٢؛ مسلم، النكاح، ١٠٧. انظر أيضًا: ابن ماجه، النكاح، ٢٥.

معظم الأحيان إنْ كان غير مطمئن في أسرته. ولهذا يمكن أن نقول إن البلاد ترتقي بنضج المرأة ووعيها، والعكس صحيح. أي إن الأمة تفقد قيمتها وقوتها لتدني مستوى المرأة. وصفحات التاريخ مليئة بنماذج لا تُعَد ولا تُحصَى لهذه الحقيقة، فالحاجة إلى أسرة سليمة أمرٌ لا مفرَّ منه.

إن الإنسان مخلوق كامل من حيث خِلقته، أما صفاته وهويته التي تعكس كماله فتظهر في الأسرة السليمة فقط، لذلك يجب أن تكون الأسرة للإنسان الحضنَ الدافئَ الذي يُعِدُّه للإحسان، وعندئذ يرتقي القلب في الروحانيات، ويتأسَّى صاحبها بالحياة الأسرية للأنبياء الكرام والأولياء العِظام.

وسعادة الأسرة منوطةٌ باحترام الطرفَين للحقوق، وتوطيدِ هذا الاحترام بالمحبة والمودة.

ولا بد من التقوى التي أمر الله تعالى بها في آيات كثيرة منها قوله: (اتقوا الله) من أجل سعادة الأسرة. والأرض والسماء شاهدتان على أن هذه الدنيا غدت جنةً ببركة رعاية حقوق المرأة، وباتت جهنم بالعاقبة السيئة لانتهاك حقوقها. وقد قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع:

«ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هنَّ عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك...».[11]

وعلى هذا الأساس كان إبعاد النساء عن الانشغال بتربية أولادهن تربيةً صالحةً وتوجيههن إلى الأعمال المخالِفة لخلقتهن العظيمة أمرًا بعيدًا عن المنطق والعقل والإيمان، لأن الطمأنينة والسعادة في الأسرة متعلِّقتان باستعمال صفات الرجل والمرأة في مكانها الصحيح.

والزواج الذي يُعقَد لبلوغ هذه الطمأنينة والسعادة في الأسرة زواجٌ يبتغيه الإسلام، لذلك لا بد من الجدية والاهتمام في هذا الشأن، وإلا كان الزواج صحبةً عاديةً وانتهى بطلاق غير مُبرَّر. والحقُّ أن الزوجَين اللذَين لم يجتمعا في الدِّين وحسن الأخلاق تنتهي علاقتهما بالطلاق أو العيش في حياة كالجحيم حتى الموت، وهذا ما لا يرضاه عاقل.

وأما تطليق النساء من أجل المتعة والترفيه فحسابه عسير وعذابه كبير، لأنه ذنب وظلم وليس حلالًا بلا ريب، وهو يدخل في حقوق العباد التي لا يغفر الله فيها، والتي تجر صاحبها إلى الهلاك والخسران.

١١ الترمذي، الرضاع، ١١.

ثمة عواقب مؤسفة كثيرة لحالات الزواج التي تتم في سبيل نيل متعة مؤقتة أو نفع خاص، وأشدُّ مَن يتضرر من ذلك الطفل، فالطفل الذي لا يجد دفء الأسرة في بيته ويُعامَل معاملة سيئة من والدَيه يعيش حياته مُعرَّضًا لرحمة الشوارع. وعندئذ يهرب من البيت وينخرط بين أطفال الشوارع حتى يسقط في وقت قصير في فخ السجائر والكحول والمخدرات والزنا وفي براثن العصابات الإجرامية. وهذا ما يمهِّد السبيل إلى فاجعة تدمِّر المجتمع، ويُطلِق شرارة انهيارٍ أخلاقيٍ مخيفٍ يجعل حياة المجتمع قاحلة جدباء.

إلا أنه علينا أن نبيِّن هنا حقيقةً عن الطلاق، وهي أن عقد النكاح طبقًا للإسلام ليس «عقدًا لا يُفسَخ بأي صورة ولا بدَّ من استمراره ولا مفرَّ منه طوال العمر» كما هو عند النصارى الكاثوليك. فكلُّ اتفاقٍ يُعقَد بموافقة الطرفَين، لذلك يمكن إلغاؤه بالتمام باتفاقٍ جديدٍ يُوقَّع بين الطرفين عند الضرورة. وهذه قاعدة في الإسلام ويقتضيها العقل والمنطق. ولولا ذلك، أي لولا حقُّ الطلاق، لصارت الحياة نكدًا، وبات الزواج أسْرًا، فيقع الزوجان اللذان لا يستطيعان إيجاد حلٍّ في مستنقع

الحياة المنحرفة. من أجل ذلك أحلَّ الإسلامُ الطلاقَ عند الضرورة التي لا مفرَّ منها، وتُركَ هذا للرجل الذي يُعدُّ أكثر عقلانية من المرأة.

إن منح حق الطلاق للرجل هو بسبب عاطفة النساء. ولا يوجد مانعٌ قط من أن تملك المرأة هذا الحق إذا اشترطته في عقد النكاح، ويُطلق على هذا اسم "تفويض الطلاق". وإذا لم تشترط المرأة هذا، فلها عند الضرورة أن ترجع إلى القاضي لتطلب الطلاق.

لذلك يمكن للزوجَين حماية نفسيهما من الطلاق بمعرفتهما قدرهما وقيمتهما والاحترام المتبادل بينهما، ويستطيعان العيش في سعادة وطمأنينة ورفاه وذكريات جميلة في ظلِّ أحكام الله تعالى، ويتجلى ذلك بصدق الطرفَين وإخلاصهما.

ويتضح ذلك في قول النبي ﷺ:

«**مَن استيقظ من الليل وأيقظ امرأته، فصلَّيَا ركعتين جميعًا، كُتِبَا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**».[12]

وقوله عليه الصلاة والسلام:

١٢ أبو داود، التطوع ١٨، الوتر ١٣.



«رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإنْ أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّت، وأيقظت زوجها، فإنْ أبى نضحت في وجهه الماء»[13]

فنجد في هذَين الحديثَين لطيفة، وهي باختصار أن سعادة الأسرة متعلقة بقاعدتَين عظيمتَين هما: الحميمية والإخلاص بين الطرفَين، وترغيب كلٍّ منهما الآخرَ في التقوى.

هل ثمة أمثلة لأسر مثالية ناجحة تجمع كلَّ ما ذكرتموه إلى الآن؟

لا شك أنه ثمة أمثلة كثيرة، وفي مقدمتها الأسرة التي أقامها نبينا الكريم محمد ﷺ، فهو أسوة حسنة في كل مجالات الحياة، فقد أقام أسرةً تُعَدُّ قدوة للبشر من حيث السعادة والطمأنينة فيها، وكانت حياته حياةً مليئةً بالبركة والفيوضات الربَّانية. أي إنه كان مثالًا لخير زوج وأفضل أب لأسرة سعيدة، وزوجته المباركة السيدة خديجة مثال لخير زوجة وأم، وكذلك أمهات المؤمنين الأخريات... فلم يصدر منه عليه الصلاة والسلام أيُّ عيب أو قصور

١٣ أبو داود، التطوع ١٨، الوتر ١٣.



في الأسرة التي أسسها، وهذا نجاح لا يمكن تصوره. ولا شك أنه كانت هناك مشكلات صغيرة بين أمهات المؤمنين لأنهن بشر كغيرهن، إلا أن جميعها أسفرت عن الخير والبركة في ظلِّ أخلاق النبي العظيمة وخصاله الحميدة، وكان عليه الصلاة والسلام قدوةً للأمة ليقتدوا به في مثل هذه الأحوال.

فأسرة سيدنا رسول الله ﷺ الأسرةُ الأسوةُ من كل جانب، تمامًا كما كان في صفاته العظيمة.

وكانت أسرته عليه الصلاة والسلام أسرةً تعم فيها الطمأنينة والسرور وإن لم يكن يُطبَخ فيها طعام لأيام. وكانت حجرات أمهات المؤمنين ضيقة لا تكاد تتسع لهن، ولكن كان يسودها الرضا والصبر والتسليم، فأصول التربية النبوية ملأت قلوبهن بالإخلاص والمحبة، فلا تستطيع أي امرأة أن تحب زوجها كحبِّ أمهات المؤمنين لرسول الله ﷺ، ولا يستطيع أي رجل أن يحب زوجته كحبِّ رسول الله ﷺ لأزواجه رضوان الله عليهن. ولا تستطيع أي بنت أن تحب أباها كما أحبت السيدة فاطمة أباها، ولا يستطيع أيُّ أب أن يحب بنته كما أحبَّ رسول الله ﷺ ابنته السيدة فاطمة.

وقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على العدل بين أمهات المؤمنين، وبذل كلَّ ما في وسعه في هذا الأمر، لكنه التجأ إلى الله ﷻ معترفًا بصعوبة تحقيق العدل بينهن، فقال:

«اللَّهم هذا قسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[١٤]

اللهم اقسِمْ لنا ولأهلنا حياةً من التقوى ترضى فيها عن عبوديتنا وطاعتنا لك، واجعل بيوتنا جنة من الطمأنينة والسعادة! ولا تجعلها جهنم تشعلها معاصينا وأعمالنا السيئة!

آمين!..

١٤ أبو داود، النكاح، ٣٩. ثمة حكم كثيرة في إقرار رسول الله ﷺ بعجزه وضعفه في هذا الدعاء والرجاء، منها تذكيرُ أمته التي تقتدي به بأنه بشر، لأن بعضًا من الأمم السابقة قد بالغت في تقديس أنبيائها فألَّهتهم وبذلك خرجت عن التوحيد. لذلك أكَّد الدين الإسلامي على أن رسول الله ﷺ «عبدُ الله» قبل صفة كونه «رسول الله» في كلمة الشهادة التي تُعَدُّ من أركان الإسلام. ولا شك أنه من الجهل النظر إلى النبي من زاوية أنه عبد لله فقط، وتجاهل أنه رسول من الله تعالى.

الأمور التي ينبغي للمرأة مراعاتها في الأسرة



"ما استفاد المؤمن بعد تقوى اللّه خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله"

(ابن ماجه، النكاح، ٥/ ١٨٥٧)

ما الأمور التي ينبغي للمرأة مراعاتها من أجل ضمان السعادة والطمأنينة في الأسرة؟

على المرأة قبل كل شيء أن تراعي العبودية الله وتقواه، لأنها من مقتضيات خلقنا في هذه الدنيا، وينبغي أن تراعي موضوع الحلال والحرام إلى جانب مراعاة العبادة والصلاة والدعاء.

وتقتضي استقامة المرأة داخل الأسرة أن تحثَّ زوجها وأطفالها وأقاربها وحتى جيرانها على الخير والبِر، فالمرأة الصالحة كالزهرة تنشر السعادة حيثما حلَّت.

إنَّ أعظم واجب للمرأة بعد العبودية لله إسعادُ زوجها وأبنائها، فبحفظ المرأة أسرتها ورضا زوجها عنها تنال رضا الله تعالى، فقد قال سيدنا رسول الله ﷺ:

«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إنْ أمرها أطاعته، وإنْ نظر إليها سرته، وإنْ أقسم عليها أبرَّته، وإنْ غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[١٥]

١٥ ابن ماجه، النكاح، ٥/ ١٨٥٧.

فعلى المرأة أن تبحث عن سُبل إسعاد زوجها وتجدها، وتحرص على رضاه.

لو أردنا أن نوضِّح هذا الموضوع أكثر، فماذا ينبغي أن تراعي المرأة في بيتها وفي حياتها اليومية؟

ينبغي للمرأة أن تعتني بنفسها في البيت، فتكون نظيفةً تهتم بأمورها، فالمرأة التي تهمل ملابسها ونظافتها تسقط من عين زوجها. وينبغي أن تبتعد عن أي شكل وصورة لا تُعجِب زوجها.

فالذي لا يستطيع أن يجد ما يبحث عنه في البيت يتجه إلى الأماكن الخاطئة في الخارج، وذلك يؤثر في سعادة الأسرة. لهذا على المرأة في البيت أن تكون مثل باقةٍ من الأزهار مختلف ألوانها وروائحها، فتُسعِد زوجها وتُطمِئنه، فيشتاق إليها ولا يكره لقاءها إذا عاد في المساء.

وعلى المرأة الصالحة أن تستقبل زوجها عند الباب بوجهٍ طلِق، وتودِّعه حين يخرج من البيت بالكلمات الطيبة والأدعية الجميلة. وإذا كانت مُرهَقة، فلا تُظهِر ذلك ولا تعبس في وجه زوجها، بل تشارك زوجها همومه، وتسعى للتخفيف من تعب عمله.

وينبغي للزوجَين ألا يُفسِدا الوئام بينهما بكثرة الشكوى والانفعال. وهنا نستطيع أن نضرب مثلًا من حياة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، فعن أنس بن مالك أن أبا طلحة، كان له ولد فمرض وأبو طلحة غائب في بعض حيطانه، فهلكَ الصبي، فقامت أم سليم، فغسَّلته وكفَّنته وحنَّطته وسجت عليه ثوبًا، وقالت: لا يكون أحد يخبر أبا طلحة حتى أكون أنا الذي أخبره، فجاء أبو طلحة كالًّا وهو صائم، فتطيَّبت له وتصنَّعت له وجاءت بعشائه، فقال: ما فعل أبو عمير؟ فقالت: تعشى وقد فرغ، قال: فتعشى وأصاب منها ما يصيب الرجل من أهله، ثم قالت: يا أبا طلحة، أرأيت أهل بيت أعاروا أهل بيت عارية، فطلبها أصحابها، أيردونها أو يحبسونها؟ فقال: بل يردونها عليهم، قالت: احتسبْ أبا عمير، قال: فغضب وانطلق إلى النبي ﷺ، فأخبره بقول أم سليم، فقال ﷺ:

«**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**».

ثم كان لهم تسعة أولاد كلهم قرأ القرآن.[16]

---

١٦ البخاري، الجنائز ٤٢، العقيقة ١؛ مسلم، الآداب ٢٣، فضائل الصحابة ١٠٧.

ماذا ينبغي للمرأة الصالحة أن تراعيه أيضًا في علاقتها مع زوجها من أجل أسرة مطمئنة؟

ينبغي لها ألا تهمل زوجها في أي وقت، بل تكون الأولوية له بين أفراد الأسرة. وأيُّ رجل طبيعي لن يقبل إلا أن تكون له الأولوية لدى المرأة، لأن غير ذلك مخالف لطبيعة خلقته.

ولا بد أن تعرف المرأة زوجها جيدًا من أجل إسعاده، لذا ينبغي لها أن تسعى لفهم زوجها وأن تشاركه قيمه واهتماماته وأحاسيسه وأذواقه، وعلى الجانب الآخر ينبغي للرجل أيضًا أن يتصرف بالصورة ذاتها مع زوجته. وإذا أهملَ الزوجان هذا الأمر، قلَّت «النقاط المشتركة والشعور بالارتباط والمشاركات» التي هي ضرورة طبيعية للرفقة في الحياة، وابتعد كلٌّ منهما عن الآخر مع مرور الوقت. وإذا لم تُتَّخذ التدابير في وقتها، حلَّ الفراق والنفور محلَّ المودة والشعور بالارتباط. وأسوأ مرحلة لهذا الفراق إذا وقعَ في الشيخوخة، فالفراق في الشيخوخة للذَين لم يسعيا للتفاهم طوال السنوات التي قضَياها معًا ما هو إلا وِحدة قاتلة وحسرة وندامة لا مفر منها.

وينبغي للمرأة أن تعين زوجها في كل عملِ خيرٍ مشروع، وينبغي ألا تُقصِّر في احترام أهله وأقاربه، وإن كان لاً بد من الإيثار والتضحية، فعليها أن تتودد أكثر إلى أهله.

والحياة فيها مفاجآت وتقلبات، وقد تحل على المرء مصائب وأزمات، فعلى المرأة أن تكون بجانب زوجها في مثل هذه الأوقات، وتسعى لتخفِّف عنه الأحمال والمشقَّات.

ولنا أن نذكر هنا أن رسول الله ﷺ لم ينسَ طوال حياته صبرَ السيدة خديجة رضي الله عنها أُولَى أزواجه وتضحياتها وحسن عشرتها، وظلَّ يذكرها بالخير دائمًا.

وخلاصة الكلام أنه على الإنسان أن يُحِب كي يُحَب، ويَحترِم كي يُحتَرَم، ويُضحِّي كي يلقى الإحسان، والمرأة هي المبادِرة في هذا الشأن داخل أسرتها، فالمرأة العاقلة تُحبِّب نفسها إلى زوجها، وتمهِّد طريق السعادة لأسرتها، وقد ورد ذلك في الحديث الشريف:

«أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»[١٧]

١٧ الترمذي، الرضاع، ١٠؛ انظر أيضًا: ابن ماجه، النكاح، ٤.

والحديث الشريف يخبرنا بالفوز العظيم الذي ستناله الزوجة الصالحة إذا أرضت زوجها، ويذكر أخلاق المرأة ومكانة الرجل في الأسرة.

وقال رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسَبُه خُلقه»[18] وبذلك أشار إلى ما ينبغي مراعاته في اختيار الزوج.

وعلى المرأة الصالحة ألا تكتفي بحب زوجها واحترامه، بل تُظهِر الودَّ لأقاربه، فذلك يُسِرُّ الزوج. ولكن هناك أمرٌ دقيق في هذا الشأن، وهو مراعاة الحدود المشروعة التي وضعها الإسلام. وعلى المرأة ألا تُدخِل بيتها أقاربها الذين يحلُّون لها إنْ كانت وحدها في البيت، وهذا أيضًا من الأمور الدقيقة التي لا بُدَّ من مراعاتها. فليس على أحد أن يتجاوز حدود الحلال والحرام بادعاء حسن النيَّة وطهارة القلب، وينبغي للمرأة على الأخص أن تحذر من تشويه سمعتها، فهي كالثوب ناصع البياض تلفت الشائبةُ عليه مهما صغُرَت أعينَ الناس.

18 الدارقطني، النكاح، ١.

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يُرغِّب في البعد عن مواطن الشبهات، إذ كان يقول:

«مَن اتقى الشبُهات، استبرأ لدينه وعرضه»[١٩]

بينما رسول الله ﷺ يسير في الطريق مع إحدى أزواجه ذات ليلة، لقيَه رجلان من الأنصار، فنظرا إلى النبي ﷺ، ثم أجازَا، وقال لهما النبي ﷺ:

«تعالَيَا، إنها صفية بنت حيي»،

قالا: سبحان الله يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ:

«إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يلقي في أنفسكما شيئًا».[٢٠]

وبذلك نبَّه إلى إزالة أسباب الشبهة والتهمة لدى الناس.

وينبغي للمرأة أن تساند زوجها في الأعمال المشروعة، فيجد الزوج معها السلوى. ولا يخفى على أحد أن الناس إذا تقاسَموا أعمال الخير والمعروف، زادت، وإذا تقاسموا المصائب والأحزان، قلَّت.

---

١٩ البخاري، الإيمان، ٣٧؛ مسلم، المساقاة، ١٠٧.

٢٠ البخاري، الاعتكاف، ١١؛ مسلم، السلام، ٢٣-٢٥.

وعلى الزوجَين ألا ينسيَا أنهما رفيقَا درب في رحلة الدنيا والآخرة. فقد كان لكل منهما حياة مستقلة من قبل، ولكنهما بعد الزواج تشاركا الحياة بأفراحها وأتراحها، ومسرَّاتها وأحزانها، فعليهما مراعاة مقتضيات حياتهما المشتركة وتقلباتها، فإذا تعثَّر أحدهما كان الآخر له عونًا وسندًا، وإذا وقع، أمسك يده ورفعه.

وينبغي أن تنتبه المرأة إلى سلوك زوجها، فإذا لاحظت غضبَه في أمر، لم تجادله، فالجدال الجِدي الطويل يضر بالمحبة والاحترام بين الطرفين، ويجر الأسرة إلى الخطر. فمن الأفضل للمرأة في مثل هذه الأحوال أن تلجأ إلى الهدوء والأدب مع زوجها، فالزوج في النهاية سيدرك خطأه ويحترم زوجته، وإلا فإن الزوج لن يرى خطأه مع أنه مخطئ، فيزرع الشيطان في قلبَيهما بذور العداوة والبغضاء.

وقد تُعمَى بصيرة الإنسان في بعض الحوادث، وقد ينسى أو يخطئ. فإذا رأت المرأة حاجةَ زوجها إلى الشورى، أشعرتْه بأنها بجانبه بصدق وإخلاص، وسعت لنصحه وقول أصوب ما تعلمه في هذا الشأن. عليها أن تكون كاتمة أسراره. ولا ننسى أن الرجل والمرأة يكمل أحدهما الآخر، وأن نساء النبي ﷺ قد أشرنَ عليه في بعض الأحيان.

ففي صلح الحديبية مثلًا، لم يرضَ الصحابة الكرام عن بنود الصلح، فلمَّا أمرهم رسول الله ﷺ ثلاثًا بأن يقوموا ليحلقوا، ما قام منهم أحد. لأنهم اعتقدوا باحتمال الرجوع عن شروط الصلح ما دام رسول الله ﷺ لم يحلق، ولم يعرفوا الحكمة من شروط الصلح بالنظر إلى ظاهرها. فقام رسول الله ﷺ ودخل على زوجته أم سلمة، وذكر لها ما لقي من الناس، فقالت له: «يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك». فخرج رسول الله ﷺ ولم يكلم أحدًا منهم كلمة حتى فعل ما أشارت به عليه أم سلمة رضي الله عنها، فلما رأى أصحابه ذلك، قاموا فنحروا.

وواست السيدة خديجة رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ حين نزل عليه الوحيِ أولَ مرة، وصحبته إلى ورقة بن نوفل، وأثنى عليها رسولُ الله ﷺ.

وعن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه منبر رسول الله ﷺ، ثم قال: يا أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه، وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك. فلو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو مكرمة لم تسبقوهم إليها، فلا

أعرفن ما زاد رجل على أربعمئة درهم. قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهم على أربعمئة درهم؟ قال: نعم. قالت: أما سمعت ما أنزل الله ﷻ في القرآن؟ فقال: فأنى ذلك؟ قالت: أما سمعت الله ﷻ يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [٢١]

فقال: اللهم غفرًا، كلُّ الناس أفقه من عمر.[٢٢]

لكن ينبغي للمرأة أن تنأى عن الكِبر وإنْ كان رأيها صائبًا حين تشير في أي موضوع، وألا تتجاوز حدود الاحترام حين تبدي رأيها لزوجها، ولا تبدو كأنها لا تثق به، ولا كأنها تنصحه، فالرجل يكره أن تنصحه امرأته. فعلى المرأة الصالحة أن تحسن استعمال نعمة العقل التي أكرمها الله بها حين تشير على زوجها.

وينبغي للمرأة أن يكون لديها مهارة تأسر بها قلب الرجل، ولهذا الشأن أمثلةٌ كثيرةٌ في التاريخ، فكثير من

٢١ النساء: ٢٠.

٢٢ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٤، ص٢٨٣-٢٨٤.

نساء السلاطين كنَّ كشركاء لأزواجهن في المُلك بأن حظينَ بقلوبهم، وبذلك تركوا وراءهم مساجد وأوقافًا كثيرة صدقةً جاريةً، وما زال ذِكرهن قائمًا إلى يومنا هذا ببركة أعمالهن الخيرة.

ونقد المرأة زوجها وسعيها لنصحه أمام الآخرين مما ينافي قواعد الأدب. ومهما كان خطؤه، فلا ينبغي أن تُشهِر بعيوبه. وكذلك الأمر للرجل، فالله تعالى يقول:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [٢٣]

ومن الخطأ أن تمدح المرأة رجلًا آخر أمام زوجها عند تقصيره، وعليها ألا تشكو زوجها لأحد حتى لأمها وأبيها، وألا تجعله في موقف حرج. فعلى الزوجَين السعي لإصلاح ما بينهما بدلًا من الاستشهاد بأحوال غيرهما.

فنرى أن الأساس في عجز الزوجَين عن بلوغ السعادة تقليلُ شأن كلٍّ منهما للآخر، على أن الزوجَين إما أن يكون أحدهما جنةً للآخر أو جحيمًا. فإذا كانت المرأة تعبد الله كما ينبغي وتُرضِيه بإجابة طلبات زوجها المشروعة، فإنها امرأة صالحة في طريقها إلى الجنة إنْ شاء الله.

٢٣ البقرة، ١٨٧.

بماذا بشَّر رسول الله ﷺ المرأة الصالحة؟

قال رسول الله ﷺ:

«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إنْ أمرها أطاعته، وإنْ نظر إليها سرته، وإنْ أقسم عليها أبرَّته، وإنْ غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[24]

وقال أيضًا:

«الدنيا متاعٌ وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[25]

وعن ثوبان رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[26]، كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره. فقال بعضُ أَصحابه: أنزلت في الذهب والفضة، لو علمنا أي المال خير فنتخذه؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أَفضله لسانٌ ذاكرٌ، وقلبٌ شاكرٌ، وزوجةٌ مؤمنةٌ تعينه على إيمانه»[27]

٢٤ ابن ماجه، النكاح، ٥/ ١٨٥٧.

٢٥ مسلم، الرضاع، ٦٤؛ انظر أيضًا: النسائي، النكاح، ١٥؛ ابن ماجه، النكاح، ٥.

٢٦ التوبة، ٣٤.

٢٧ الترمذي، تفسير القرآن، ١٠.

إننا نمر بأزمات ومصائب كثيرة من الناحية المادية في أيامنا، فما الذي يجب الانتباه إليه في موضوع المال حتى لا تشوب سعادةَ الأسرة وطمأنينتها شائبة؟

على المرء أولًا أن يتعلم كيف يسيطر على نفسه، وعليه ألا يسعى لشراء كلِّ ما يراه ويفوق طاقته، فيحمِّل نفسه ما لا يستطيع حملها.

ومع انتشار بطاقات الائتمان وقعت كثير من الأسر في مستنقع الديون والقروض، إذ حسبت أنها تستطيع أن تنال كل ما تراه بيسر ورخص، فراحت تستهلك بلا حدود. وكم مِن أسرة سعيدة انهارت أو كادت لهذا السبب.

فينبغي الحذر من التبذير والإسراف وإنْ كانت أحوال الزوج المادية جيدة، وهذا واجب على المرأة والرجل. فقد يأتي يوم- لا قدَّرَ الله- يبحث فيه المرء عمَّا أنفقه. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [٢٨]

٢٨ الإسراء، ٢٦- ٢٧.

وإذا كان هناك فائض من طعام وشراب وثياب، فينبغي البحث عن أصحاب الحاجة، وإعطاؤهم حقوقهم. فإرضاء الفقراء والمحتاجين ودعاؤهم يُفرِح البيوت ويبارك في الأرزاق. وينبغي ألا ننسى أبدًا أننا قد نكون محلَّ المحتاجين، وقد يكونون محلَّنا.

أما مقياسنا في الإنفاق فينبغي أن يكون قوله تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [٢٩]

فإذا أنفقنا، ينبغي أن يكون إنفاقنا مما نحبه ونطلبه أكثر من الثياب المستعملة أو البالية.

وقال رسول الله ﷺ:

«ما نقصت صدقة من مال قط، ولا مدَّ عبد يده بصدقة إلا أُلقيَت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل» [٣٠]

وينغبي أن نذكِّر هنا أن مراعاة الاقتصاد في الإنفاق واجب المرأة أولًا، فإذا حرصت المرأة في بيتها على الاقتصاد في المطعم والمشرب والملبس وتواضعت، وتجنَّبت الإسراف، عمَّ الرخاء والبركة والطمأنينة في

٢٩ آل عمران، ٩٢.

٣٠ علي المتقي، كنز العمال، جـ٦، ص٣٧٧.

الأسرة وإنْ كان راتب الزوج قليلًا. لذلك كان من مصادر السعادة في الأسرة بدء الطبخ بذكر اسم الله، والاعتدال في استعمال مواد الطبخ، والكف عن طلب ما يزيد عن ميزانية الأسرة.

وليس يخفى على أحد اليوم أن إلقاء الأطنان من الطعام في القمامة كلَّ يوم حقيقة مؤلمة تزيل البركة. والمرأة التي لا تسرف تراعي استعمال ما يدخل بيتها خير استعمال، ولا يقتصر الموضوع هنا على الطعام فقط، ذلك أن فساد أي شيء قبل استعمال ورميه في القمامة هو إسراف لا يمنعه إلا المرأة.

كانت النساء في ما مضى حريصات في تجنب الإسراف، فكانت المرأة تخيِّط الثوب وترقِّعه إذا تمزَّق، أما اليوم فإن معظمهن يرجحن شراء ثوب جديد ولو كان التمزق صغيرًا لا يكاد يُرَى.

وأخيرًا أود أن أذكِّر مرة أخرى بحقيقة أن أنثى الطير هي التي تبني العش.

فإذا أدَّت المرأة واجباتها وهي تدرك هذه الحقيقة، غدَا بيتُ الأسرة بيتًا من بيوت الجنة، وعلى الرجل حينئذ أن يعرف قدْر هذه المرأة ويحميها.



الأمور التي ينبغي للرجل

مراعاتها في الأسرة



من واجبات الرجل العظيمة تربية المرأة والأطفال من الناحية الدينية والأخلاقية تربيةً تكون سعادةً لهم في الدنيا والآخرة.

ما الأمور التي ينبغي للرجل مراعاتها في الأسرة؟

إن استقرار سعادة الأسرة على أسس سليمة قائمٌ على إدارة الأب الصالح، والأب الصالح هو الأب الذي يؤدي واجباته على أحسن صورة مثل إعاشة الأسرة وتربيتها والمحافظة عليها ورعايتها، وهذا يقتضي أن يكون الأب واعيًا يقظًا خبيرًا ماهرًا مؤمنًا وبخُلق حسَن.

شيخنا الفاضل، لو أردنا أن نوضح هذا الموضوع أكثر، فما الأمور التي ينبغي على الأب تأمينها من أجل أسرته؟

إذا عزمَ الرجل على الزواج، فإنه يحتاج إلى مصدر رزق يوفِّر منه الحلال من الطعام والشراب لنفسه ولأسرته التي تحمَّل مسؤوليتها.

وعلى الرجل أن يحرص على الرزق الحلال في عمله، ويتجنب إطعامَ أهله الذين لا يعرفون مصدر رزقه الحرامَ والمشبوهَ.

إن ديننا العظيم حمَّل الرجل تكاليف تأمين معيشة الأسرة، ومن أجل ذلك زاد حصته في الميراث. وعلى

هذا الأساس ينبغي للرجل أن يُقدِم على الزواج إذا ملَكَ مصدر رزق. ولا يليق أن يظلم إنسانٌ لا يجد قوت يومه غيرَه معه. ولكن علينا أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى يعين مَن يبتغي الزواج حفاظًا على نفسه ودينه وإنْ كان مُعسِرًا، فقد رغَّبَ الله سبحانه وتعالى في الزواج مذكِّرًا بسعة رزقه وفضله إذ قال:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣١]

فنفهم من هذه الآية ضرورة زواج القادرين على الزواج في المجتمع، وكذلك ضرورة تزويج الذين ضاقت أحوالهم، فهذا من واجبات المجتمع الإسلامي، وبابٌ لخير عظيم، وبذلك تُحفَظ عفة الإنسان ومجتمعه.

والعفَّة صفة خصَّها الله للإنسان من بين المخلوقات، ولكن الإنسان يهوي فيكون أضل من الحيوان إذا غابت عنه هذه الصفة الإنسانية.

٣١ النور، ٣٢.

ولا شك أن الناس مختلفون في ما أكرمهم الله من ذكاء وقوة وقدرة وصفات وميول، ولذلك تنوَّعت مهنهم ومشاربهم. والمجتمع يحتاج إلى كلِّ مهنة ضرورية وأربابها كي يستمر نظامه، فلا بد لكل مجتمع من طبيب وأستاذ وفلاح وعامل نظافة... فعلى كل إنسان أن يسعى ليؤسس أسرة وفقًا لقدرته وطاقته. وينبغي وجود التكافؤ في الأحوال الاجتماعية للطرفَين، ولا يعني التكافؤ هنا من الناحية المادية فقط، بل تكافؤ في العلم والخُلق والأعراف، وعندئذ لا يكون اختلافٌ بين رغبات الطرفَين يهز كيان الأسرة، ويسهل التفاهم. فالرجل مثلًا إذا تزوج من غير أن تكون زوجته كفئًا له، فلن يتفاهم معها وسيفسد حياتها، ولا يمكن أن يكون الحل عندئذ إلا بالمحبة العظيمة بين الطرفين، ولكن ذلك أمر نادر. فالأساس في الزواج التكافؤُ بين الأسرتَين، فذلك أفضل وأسلم دائمًا. وهذا يعني أن تفاهم طرفَين لهما مشاعر متشابهة وغايات ورغبات متماثلة أيسَر.

وأما حاجات الأسرة المادية فتُنظَّم وفقًا لعمل الرجل وكسبه، فليس من حق الزوجة والأولاد أن يطلبوا من الزوج



فوق طاقته، فالزوج مسؤول عن تلبية الحاجة إلى «المسكن، والمطعم، والملبس» وفقًا لقدرته على الكسب.

فأما المسكن فعلى الرجل أن يختاره على قدر عدد أفراد أسرته سواء أكان استئجارًا أو مُلكًا، وأن يكون في منطقة حسنة وجوار حسن. ومن ظلم الأسرة أن يختار الرجل مكانًا يؤذي صحة أهله وبين جيران سيئين إنْ كان قادرًا على غيره، فذلك مما يؤدي إلى سوء أخلاق الأسرة وانهيارها مع مرور الوقت.

وأما المطعم فيكون وفقًا لكسب الرجل من عمله المعتدل، فلا يتكاسل الرجل ولا يُنهِك جسمه، فواجب الرجل تأمين قوت أهله بحرص على هذا التوازن. ولا بد للرجل من تجنب الإسراف والبخل. ويؤسفنا أن يكون الإسراف اليوم من أعظم مشكلاتنا، وكثير من الناس يهمل هذا الموضوع. مع أن الرجل عليه أن يتجنب الإسراف وإنْ كان غنيًّا، وإلا هلك تحت حِمل الإسراف الثقيل.

إنَّ أكل الإنسان الطعامَ كي لا يموت فرض، وأكله على قدر حاجته مباح، ولكن أكله فوق طاقته حرام. وقد

صنَّف أهل الله الإسراف في الأكل وفقًا لدرجة التقوى في القلب فقالوا: «الأكل بعد الشبع إسراف في الشريعة، والأكل حتى الشبع إسراف في الطريقة، والأكل بغفلة عن الله إسراف في الحقيقة».

وعلى الرجل أن يكون حذرًا دقيقًا في موضوع الطعام والفواكه التي يحبها أهله، فيراقب أولاده لا سيما الإناث إذا كانوا يخجلون من طلب شيء منه.

ولا بد من الكرم مع الضيف في إطار مشروع، فذلك دليل على كرم الخلق وتعظيم لشرف الإنسان.

وأما الملبس فعلى الأب أن يحرص على أن يكون له ولكل من زوجته وأطفاله ثوبين على الأقل، ثوب للشتاء وآخر للصيف. وتخصيصُ ثوبٍ آخر من أجل ارتدائه في أيام السرور مثل أيام الجُمَع والأعياد واحتفالات الزفاف هو أمرٌ مشروعٌ ومباحٌ، أي ليس ذنبًا. ولم يحرِّم الدين الإسلامي التزين في حدود معيَّنة، إلا أنه منعَ ارتداء الملابس الفاخرة والتكبر والغرور بها.

وقد حُرِّم على الرجل لبس الثياب من الحرير وارتداء الزينة من الذهب كالخاتم والساعة والعقد،

لأن استخدام الرجل زينةَ النساء يضعفه خُلُقًا. وينبغي الحذر في هذا الأمر في ثياب الأطفال الذكور. ومن عظيم الخطأ إلباسُ الأطفال الإناث ثيابًا تكشف أجسامهن أو ثيابًا تشبه ثياب الأطفال الذكور انطلاقًا من ذرائع لا توحي إلا بالجهل كأن يُقال: «ما زالت صغيرة». فمع مرور الوقت تُدمِن البنت هذا النوع من الثياب، فلا تستطيع له تركًا، وبذلك يسري سُمُّ الفساد إلى قلبها في صغرها. ومن أجل ذلك ينبغي تعويد البنات على الحجاب في وقته، وتوعيتها بأهميته، وإلا كانت الميول الخاطئة ضررًا على شرف الأنثى ومكانتها. وينبغي أن تُدرِك البنت أن الحجاب وسيلة لحفظ عفتها، ووسيلة لجمال المرأة واحتشامها. إن النساء اللاتي ارتدين الحجاب بوعي وكما ينبغي يصبحن عنوانًا للوقار والشرف لمَن حولهن دائمًا، ولا يكون في القلوب نحوهن إلا الاحترام والتقدير.

إلى ماذا ينبغي أن ينتبه الرجل في تعليم أهله؟

من واجبات الرجل العظيمة تعليم المرأة والأطفال من الناحية الدينية والأخلاقية تعليمًا يكون سعادةً لهم

في الدنيا والآخرة. وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى هذا الواجب العظيم في قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٣٢]

وإطار هذا الواجب يشمل المجتمع كله بدايةً من الزوجة والأطفال ثم الخدَم في البيت والجيران والأقارب، كُلٌّ وفقًا لمقامه وقدرته، لأن الأسرة تتأثر بمحطيها وتؤثر فيه.

وعلى الأب أن يولي أهمية لتعليم أهله القرآن الكريم، ويذيق أولاده لذةَ العبادة، وعليه أن يؤدِّبهم أحسن الأدب ويربيهم على الأخلاق الحسنة، ويحرص على ذهابهم إلى معاهد تعليم القرآن الكريم في الصيف وبعد إنهاء مرحلة التعليم الابتدائي، لا سيما الإناث. ولا ننسى أن خير ميراث يتركه الوالدَان لأولادهما إنما هو ميراث الآخرة، فطوبى للوالدَين اللذَين يحفِّظان ولدهما القرآنَ الكريمَ ويربِّيانه بما في هذا الكتاب المبين.

قال رسول الله ﷺ:

٣٢ التحريم، ٦.

«مَن قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألبسَ والداه تاجًا يوم القيامة، ضوءُه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟»[٣٣]

وفي أيامنا يبذل الناس جهودًا كبيرة لتعليم أولادهم لغة أجنبية، ويقارنون بين أفضل المدارس الخاصة، ولا يمتنعون عن دفع النفقات ولو كانت باهظة. ولكن يؤسفنا أشد الأسف تجاهل معاهد تعليم القرآن الكريم، بل استحقارها، وحرمان الصغار من كلام الله، مع أن الفوز العظيم يكون بترك ذرية طيبة تدعو لنا من بعد موتنا.

علينا أن نربِّي أطفالنا مدركين بركة القرآن وفيوضاته، لا سيما قصص الأنبياء والحِكَم الربانية فيها، فمن الواجب علينا في آخر الزمان تقوية أبنائنا بالإيمان من أجل حماية أنفسهم من مستنقعات الرذيلة وآفة ترك الدين. ومن أجل هذا ينبغي التركيز على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم المباركة الأسوة إلى جانب تعليم القرآن الكريم، لأنه عليه الصلاة والسلام بسيرته العطرة كان قرآنًا حيًّا. ولا بد من السير على خطاه عليه الصلاة

٣٣ أبو داود، الوتر، ١٤.



والسلام في عيشه وأخلاقه والسعي للتشبه به من أجل تعليم سننه كما ينبغي.

إذا لم يؤدِّ الوالدان واجباتهما كما ينبغي ولم يربِّيا ولدهما التربية المعنوية الضرورية، كبُرَ الولد بعقل مادي أسير لوسائل التواصل التي تنشر السموم، فتُرضِعه هذه الوسائل وتحدِّد شكل شعره، وترسم مشاعره وطموحاته، ويبيت الوالدان عندئذ خدمًا لتنفيذ رغباته، وإذا رضيَا بسوء حاله، فذلك نذير عذاب شديد.

وكم يؤسفنا أن يتابع الطفل المسلم حياة الرياضيِّين والفنانين المحليين والأجانب ويحفظ تفاصيل حياتهم، ويقتدي بهم، ويسعى جاهدًا للتشبه بهم، وهو لا يعلم حتى أسماء الأنبياء الهُداة إلى الفوز والفلاحِ، ويكبر غريبًا عن أخلاقهم الحسنة، ولا يعتبر من الحِكَم القرآنية عنهم. والمفهوم من هذه الحقيقة أن الغرباء هم الذين يربون أولادنا لا نحن، أي إن الوالدَين يغذِّيان جسم الولد، والغرباء يوجِّهون رغباته، والوالدان يتحمَّلان الأعباء المادية لتربيته، والغرباء ينتفعون به. وما دمنا مهزومين في الثقافة والتعليم والتربية، فلا مانع من هزيمتنا في مجالات أخرى، والعياذ بالله.



ومن أجل ذلك علينا أن ننجح في امتحاننا في التربية نجاحًا عظيمًا ونحن نعيش في أعنف الحروب الثقافية وأقسى الصراعات التعليمية. علينا أن نربي أولادنا وفقًا لشرفنا وكرامتنا، وينبغي أن يكبروا على أصولهم المتجذرة في التاريخ، وينعكس هذا على حياتهم من لباسهم إلى قلوبهم.

لقد وضع الإسلام قواعد للباس تصلح لشرف الإنسان وكرامته، منها ألا يكون الثوب ضيقًا أو شفافًا يُبدي ملامح الجسم. عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ، وقال:

«يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا»

وأشار إلى وجهه وكفيه.[٣٤]

فهذه القاعدة من القواعد الأساسية التي وضعها الإسلام من أجل منع أي فعل يؤذي شرف المرأة وكرامتها، والحرص على تجنب إيذاء المرأة وشرفها

٣٤ أبو داود، اللباس، ٣١.

وكرامتها من الأمور التي ينبغي أن يراعيها الطرفان، الرجل والمرأة معًا.

ومما ينغبي مراعاته فصل غرف الأولاد الذكور عن الإناث قبل سن البلوغ، فذلك أتقى لهم وأسلم لشخصيتهم.

ما المسؤوليات التي تقع على الرجل في موضوع الحفاظ على الأسرة؟

ينبغي للرجل حماية أسرته من كل أنواع المساوئ والشرور. وعليه إبعاد زوجته وأولاده عن سوء الصحبة، والزيارات التي تفسد القيم الدينية والفضائل الأخلاقية، ومن الفاسد من الكتب والمنشورات والإعلانات والبرامج في التلفاز.

فمسؤولية الحفاظ على الأسرة من الداخل والخارج مُلقَاة كاملة على الرجل.

ما الأمور الأخرى التي على الرجل الانتباه إليها أثناء إدارة أسرته؟

على الرجل الحرص على اتباع حدود الدين، وعليه أن يسعى ليكون بعيدًا عن الأماكن التي يعمل فيها الرجال

والنساء معًا. وإذا اضطُرَّ للعمل في مثل هذه الأماكن، فعليه الانتباه إلى نظراته وحركاته، ويراعي الأدب الذي أمر به ديننا العظيم. وإذا كان في موقع رب العمل، فعليه ألا يكون وسيلة للاختلاط في العمل، ويمنع وقوع الخطأ بفصل الرجال عن النساء في عملهم، وعليه أن يسعى لتجنب بقاء الرجل والمرأة وحدهما في مكان مغلق، ويحرص على الابتعاد عن توظيف سكرتيرة لأسباب وأعذار مختلفة. ولا يخفى على أحد اليوم حقيقة أن الاختلاط في أماكن العمل سببٌ للسلوك الخاطئ والطلاق وهدم الأُسَر.

والعاقل مَن يضع عقلَه عند عتبة الباب إذا دخل بيته، ومشاعرَه وعاطفتَه إذا دخل مكان عمله.

وعليه أن يعفو عن الأخطاء المتعلقة بالأمور الدنيوية في علاقاته مع زوجته وأولاده، فيعاملهم برحمة وحلم. وعليه أن يُخفي أسرار زوجته وعيوبها عن الجميع.

وأما في إهمال أمور الدين فينبغي أن يعامل زوجته وأولاده معاملةً جديَّةً، ويكون حازمًا إذا وجد جهلًا أو كسلًا فيهم. ولا بدَّ من أن يهتم في كل الأحوال لإتمام زوجته وأولاده نواقصهم في أمور الدين وفهمها. وعليه

أن يسعى ويبذل الجهد ويستفيد من المربِّين الفضلاء في هذا الشأن.

وينبغي للرجل أسْر قلب زوجته بكلمات رقيقة جميلة، ولا يبعدها عنه بفظاظته وعبوس وجهه.

قال سيدنا رسول الله ﷺ:

«خِياركم خِياركم لنسائهم»[٣٥]

وعلى الرجل أن يشاور زوجته في المعيشة وإدارة المنزل ولا يكلِّفها بما يفوق طاقتها، وعليه من حين لآخر أن يعينها في تربية الأطفال، لأن تربية الأطفال وتدبير شؤون المنزل يُرهِق المرأة في الليل والنهار. فعون الرجل للمرأة في حملها الثقيل وسيلةٌ لزيادة المحبة والمودة والتفاهم بينهما.

وعليه أن يدعو الله لزوجته في حضورها وغيابها.

وعليه ألا يسافر إلى بلد بعيد ولا يدعو إلى البيت ضيوفًا غرباء من غير إخبار زوجته. وينبغي ألا يطلب من زوجته الخروج أمام غير المحارم وخدمتهم. وينبغي أن ينأى بأسرته عن أماكن الاختلاط على قدر استطاعته.

٣٥ الترمذي، الرضاع، ١١. انظر أيضًا: أبو داود، السنن، ١٥؛ ابن ماجه، النكاح، ٥٠.

إلى ماذا سيصل الأب الذي يحمل على عاتقه مسؤولية إدارة الأسرة بكل ما فيها من أحمال وهموم إذا أدَّى واجباته كما ينبغي؟

لقد جعل الدين الإسلامي الأسرة أمانةً لدى الأب، وكلَّفه بواجب عظيم وأعطاه صلاحية في تلبية جميع حاجات الأسرة المادية والمعنوية، ولذلك كان للأب موقع الرياسة في الأسرة.

إن الأبَ كالشمس في سماء الأسرة والأم كالقمر جعلت حجاب العفة هالةً عليها، والأطفال كالنجوم المتلألئة في سماء الفضيلة.

والأب الذي جعل عقله وقوته وإرادته وعلمه وخبرته في سبيل تربية أهله وكمالهم وطمأنينتهم له الحقُّ بلا شك في أن يُحتَرم ويُطَاع ويُحَب، ولا يليق به أن يُعصَى ويُجحَد ويُخاطَب بكلمات سيئة.

ولهذا قال سيدنا رسول الله ﷺ:

«رِضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»[٣٦]

٣٦ الترمذي، البر، ٣.

على الزوجة والأولاد في الأسرة ألا يُعرِضوا عن طاعة الأب ربِّ المنزل واحترامه، فالحرِمان من الأب ظلامٌ ما بعده ظلام، وقدْرُه يُعرَف أكثر في غيابه. فلا بد من إدراك قيمته في صحته وحياته، وطاعته فيما لا يخالِف أمرَ الله، وتجنب التقصير في احترامه وتبجيله.



الأمور التي ينبغي للرجل والمرأة مراعاتها في الأسرة



أرحمُ والدَين والدَان يُعِدُّ كلٌّ منهما الآخر ويُعِدَّان معًا أولادهما من أجل العبودية لله تعالى.

الأمور التي ينبغي للرجل والمرأة مراعاتها في الأسرة

يؤسِّس الرجل والمرأة أسرة معًا ويقرِّران الحياة معًا ومشاركة كل شيء، فما الأمور التي على الطرفين مراعاتها في تشاركهما للحياة؟

ينبغي هنا الانتباه إلى أمرَين:

- التشارك في السعادة والسرور.
- والتشارك في أعباء الحياة وهمومها.

ينبغي أن يستمر التشارك في كل أحوال الحياة في جوٍّ من الروحانية والمودة، وينبغي تشارك الأزمات والمآسي والأحزان والابتلاءات مثل تشارك أحوال السعادة والسرور، وينبغي أن يدعم كلٌّ طرف الآخر دائمًا ويواسيه ويسانده، لأن الحياة لا تكون كما يشتهيها المرء كل حين، ولا ننسى تقلبات الحياة وعواصفها ومنعطفاتها وعقباتها.



إن الأيام القادمة مليئة بالمجهول والمفاجآت، والقدر سِرٌّ إلهي، لذلك كان أعظم مصدر للقوة والدعم هو الإيمان بالله والتعلُّق به قبل أي شيء، ثم شريك الإنسان في حياته. ولا بد أن ندرك أن الإنسان العاجز المُنهَك إذا لم يجد الدعم الذي يتوقعه في أسرته حين تقع عليه المصائب، فقد ينهار وتسوء أحواله. أما المصائب التي تقع على الأسرة التي يكون أفرادها ناضجين واعيين فإنها تزول بسهولة وفقًا لمتانة بناء الأسرة.

وسلامة الأسرة منوطة أيضًا بالتعايش السليم، وهذا من أهم شروط النتائج الحسنة. يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن الوردة نالت رائحتها الجميلة بحسن تعايشها مع الشوكة، فاسمعْ هذه الحقيقة من الوردة ذاتها. تقول لك:

لماذا أغتمُّ وأهتمُّ بوجودي مع الشوكة؟

إني أضحك لأنني تحملتُ صحبةَ الشوكة بطبعها السيئ. وبفضلها صرتُ أقدِّم للعالَم الجمال والرائحة الطيبة...».

وهذه الوردة تقول للإنسان:

«كنْ مثلي».

إلى ماذا ينبغي الانتباه من أجل تأسيس أسرة سليمة البناء؟

السعادة في الأسرة أمر يتحقَّق بمشاركة الطرفَين، وأساسها:

١. حسن المعاشرة.

٢. والسلوك بنضج وتفهم.

٣. والتضحية.

وهذا ممكن بالفضيلة والدراية والذكاء والإخلاص والمشاعر المتبادلة.

وفي حسن المعاشرة ينبغي أن تكون الخصال الخمسة التالية في الطرفَين: التقوى، والفضيلة، والمحبة، والرحمة، والصدق.

وتتضح ضرورة وجود هذه الخصال في الطرفَين بالمصائب والمشكلات التي تقع في الأسرة كل يوم.

إن التقوى والفضيلة في الأسرة أساسُ جميع الأوصاف الطيبة كما هي في المجتمع. والبيوت التي يُعَاش فيها الدين كما ينبغي وتظهر فيها الفضائل والأخلاق تمنح الإنسان الفوز في الدارَين. وأما البعد عن الدين وضعف الأخلاق فسببٌ لوقوع الضرر على أفراد الأسرة والمجتمع.

وهنا لا بد من فهم موضوع التقوى فهمًا صحيحًا، فالإنسان لا يكون تقيًّا وفظًّا سيئ الطبع في الوقت نفسه، لأن الإسلام أدب وأخلاق ولباقة ونظافة، أي هو الأدب، ثم الأدب، ثم الأدب... وكما قال الشاعر:

الأدب تاج من نور الهدى

فارتدِه تأمَن من كل البلى

وقال مولانا جلال الدين الرومي:

«انحنى عقلي إلى قلبي وسأل: ما الدِّين؟ فقال: الدِّين هو الأدب».

وأما المحبة فهي غذاء الأسرة، فإذا قلَّت المحبة في الأسرة، تضعضعَت أركانها. وينبغي أن تكون المحبة في الطرفَين، فما ينطبق على الأواني المستطرقَة في الفيزياء ينطبق على المحبة في القلوب، والمرء يُحَبُّ على قدر محبته غيره.

وكلما زادت المحبة، رقَّت العبارات وحسنت الألفاظ. وينبغي أن تكون المحبة في إطار الأدب ولا تتحول إلى لامبالاة. وينبغي أن تكون المحبة والرحمة وغيرها من المشاعر المشابهة في اعتدال، فالمبالغةُ

في المحبة ضررٌ، وحِرمانها من مستحقِّيها ضررٌ ودافعٌ للبحث عنها في أماكن أخرى.

إن حصر المحبة في الأهواء النفسية وتجاوز الحدود فيها يفتح طريقًا إلى الغيرة والكبت، وقِلَّةٌ المحبة سببٌ للإهمال، فالحالتان كارثةٌ على الأسرة.

والرحمة كذلك يجب أن تكون بعيدة عن المبالغة والإهمال، فالمبالغة فيها توقِع الإنسان في الضعف، وتجعله يسامح حتى في الأخطاء الكبيرة المدمِّرة، وعندئذ لا تكون رحمة، بل ضعفًا في القلب.

وقلة الرحمة من جانب آخر تغلظ القلب وتجر المرء إلى الظلم والطغيان. وأما الرحمة التي تكون معتدلة فتكون مثمرة وتجلب السرور إلى الأسرة. وأشدُّ الآباء والأمهات رحمةً هم الذين يوقِظ بعضهم بعضًا ويوقظون أولادهم لصلاة الفجر، ويُعِدُّونهم للفوز في الآخرة.

وأما الصدق فهو أيضًا من الأمور التي ينبغي أن يهتمَّ بها الطرفان، وتعني أن يكون المرء صادقًا في قوله وفعله ولا يكذب أبدًا. ولا يخفى على أحد أهميةُ الصدق بين

الطرفَين، ونأيُهما عن أي قول أو فعل يضرُّ بالثقة بينهما من أجل سلامة الزواج واستمراره.

ومما ينبغي مراعاته الحذرُ من الغيرة المفرطة والمبالغةِ في الشك، ذلك أن عدم الثقة من الأمور التي تزعج الإنسان، وإذا وقعت مشكلات في هذا الشأن، فينبغي للطرفَين أن يجلسَا ويتحاورَا، ويبتعدا عن تكبير المشكلات الصغيرة.

ومن شروط سلامة الزواج الصدقُ بين الزوجَين وعدم ميل قلبهما إلى مَن هو مُحرَّم عليهما، وهنا لا بد من مراعاة الأسس والقواعد التي وضعها الدين المبين في علاقة الرجل والمرأة الأجنبيَّين. فكلُّ فعلٍ يوقِع الإنسان في الشك والظن والغيبة والوسوسة يضر بشرفه وكرامته ويجر أسرته إلى الخطر.

ومن مظاهر الصدق والإخلاص بين الطرفَين احترام كلٍّ منهما لوالدَي الآخر، وعدِّهما مثل والدَيه، وعليهما ألا ينسيا أنهما سيكونان يومًا في موقع الحمو والحماة، فإذا أخطآ في هذا الأمر، فليذكرَا دائمًا قولَ: «مَن دَقَّ دُقَّ».

إن وظيفة تأمين المعيشة في الأسرة مُلقَاةٌ على الرجل، ولكن هل مسؤولية مراعاة الاقتصاد وعدم التبذير في الأسرة ملقاةٌ على الرجل فقط؟

لقد حمَّل الدين الإسلامي الرجلَ وظيفة تأمين معيشة الأسرة، لكن هذا لا يعني تلبيته لكل طلبات أفراد الأسرة فورًا، بل عليه تلبية الحاجات المشروعة والضرورية وفقًا لطاقته. وليس من الصواب تلبية كل ما يطلبه أفراد الأسرة فورًا وإنْ كان ربُّ الأسرة غنيًّا. لأن تنفيذ كل ما يُطلب يزيد الرغبات والشهوات مع مرور الوقت، ويُبعِد عن القناعة فتنفلت النفس وقد تتمرد. ومثل هذه النفس تزداد أنانية فتوقِع صاحبها في مصيبة التفكير بنفسه فقط، فيظن أن جميع أفراد الأسرة أسرى لديه، ويبدأ باستغلال كل شيء.

أي إن نفس الإنسان الذي يستعمل كل ما لديه من أجل تلبية أهوائها تمسي كالفرس بلا لجام. ولذلك كان تأجيل بعض الرغبات الشديدة شرطًا للنضج المعنوي، ورؤية حقيقة الحياة، ونيل رضا الله سبحانه وتعالى. ولا ننسى أن الصبر الحقيقي الصبر في الرخاء، لأن الرخاء وسيلة للاستفزاز والتحريض.



إن عدم تنفيذ كل ما يُطلب فورًا واتباع طريقةِ تدريب في سبيل إنضاج الإنسان هو حكمةٌ إلهيةٌ، فالله ﷻ قد لا يقبل طلبات عباده وأدعيتهم، وقد يؤجلها، وقد يقبلها. والمقصود من ذلك أن يدرك العبد حاجتَه إلى الحق ﷻ، ولا يتعلق بالدنيا الفانية، ولا ينغر بالنِّعم. لأن الإنسان لا يريد ترك الدنيا حتى حين يكون في آلاف الأزمات، ولا يستطيع الوصول إلى آماله. ولا يريد مغادرة هذه الدنيا وإنْ تحققت كلُّ رغباته وبلغ جميع آماله، وقد ينساق إلى أخطاء كبيرة وحتى إلى العصيان.

ولا بد للوالدَين أن يضعَا بالحسبان الصعوبات التي قد تواجه الأولاد في المستقبل ويومَ الحساب العسير حين يلبِّيان لهم حاجاتهم.

ولا ريب أنه ليس من الصواب تقليص النفقات إلى حد البخل، والإعراض عن تلبية الحاجات الضرورية. فلا بد من الاعتدال بين الحالتَين، يقول الله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[37]

٣٧ الفرقان، ٦٧.

وهذا الاعتدال هو ميزان الحياة. فالبخل صفة سيئة مثل الإسراف، ولا يحقُّ لرجل أو لامرأة أن يسرف ويبذِّر حتى لو كان مقتدرًا. ولا أحد له أن يقول: «المال مالي، فأنا أنفق كما أشاء»، فالله الذي أعطاه المال أمانةً سيسأله يوم القيامة: «فيمَ أنفقتَ؟» فيحاسبه على كل ما أنفق. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**﴾[٣٨]

وقد حرَّم الإسلام الإسراف بمختلف صنوفه على كل إنسان. والإسراف في الأسرة مرضٌ سيئٌ ينبغي الوقاية منه، ولا فرق إن كان الإسراف من الرجل أو المرأة. وإذا أصاب هذا المرض قلب الإنسان، فيصعب عليه أن يعيش في طمأنينة وراحة.

إن الابتلاء الذي نسميه «جنون الاستهلاك» اليوم جعلَ الطمع والحرص على كل جديد وعدم الاكتفاء

٣٨ الإسراء، ٢٦-٢٧.



بالموجود أمرًا طبيعيًّا. وبات من نقاط ضعف الإنسان تجديد أثاث بيته وهاتفه وثيابه وسيارته وأغراضه الأخرى، ومتابعة كل جديد باسم «الموضة»، والحرص على ارتداء الثياب من علامة تجارية معيَّنة. فكانت النتيجة الخسران المبين! وما أسوء عاقبة مَن يلجأ إلى الدَّين والاقتراض والوقوع في الربا، واستعمال بطاقات الائتمان إذا عجزَ كي يلبي رغبات نفسه وأهواءها، ثم إذا غرق في مستنقع الدَّين، ادَّعى أن مَن حوله لا يعينونه.

وما ذلك إلا نتيجة سيئة لتجنب استعمال العقل والمشاعر استعمالًا حسنًا، فلا بد من الميل إلى بَركة الصبر بدلًا من جنون الاستهلاك. لأن الله تعالى يكرم الإنسان بالقلة أو الكثرة لحكمة وغاية، فتكون وسيلة للصبر أو الشكر. وعلى العبد أن يذكر دائمًا أن قلة الحيلة في الأمور الدنيوية تقرِّبه إلى ربه فيدعوه. وما يجعل الإنسان إنسانًا إحساسُه بعجزه.

وقد بيَّن أولياء الله ضوابط الثياب وفقًا لدرجات قلوب المؤمنين، فقالوا:

ضابط الثياب في الشريعة عدمُ تجاوز حدود الحلال والحرام.

وضابط الثياب في التصوف عدمُ تجاوز حدود الحاجة.

وأما ظابطها في الحقيقة فعدمُ الإفراطِ في محبة الثياب، أي لبسُها نظيفةً بسيطةً وعدم إشغال القلب بها...

وإذا كان الإنسان يستصعب إيجاد ما ينفق فيه ماله فيميل إلى الإسراف، فينبغي له أن يتذكر مد يد العون إلى المحتاجين، وإذا كان يعينهم، فعليه أن يزيد من عونه، لأن ذلك واجب عليه يقتضيه دينُه وإنسانيَّتُه. والإنسان الذي يدرك حقَّ الفقير والمحتاج واليتيم في ماله لا يُسرف ولا يبذِّر. وقد بيِّن الإسلام أين يُنفَق المال وأين لا يُنفَق مثلما وضعَ الأسسَ التي تبيِّن مواضع كسب المال. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٣٩]

وعلى الإنسان ألا ينسى أنه سيُحاسَب في الآخرة على كل قرش أسرف به وإخوانُه في فقر وحاجة.

٣٩ البقرة، ١٩٥.

ولذلك ينبغي له التأمل قبل أن ينام كل يوم في النعم التي بين يديه ويشكر الله عليها. فمن مظاهر التفكر أن يتفكر في عِظم النعمة والمسؤولية وهو ينام شبعان وكثير من الناس جوعى، ويعيش مطمئنًا مكتفيًا وكثير من الناس في خطر وحاجة، ويستلقي على سريره في دفء وكثير من الناس لا يجدون مأوى لهم لمصيبة أو كارثة.

فينبغي ألا نهمل مثل هذه المحاسبة لأنفسنا قبل أن ننام في كل ليلة، وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»، [٤٠]

وقال أيضًا:

«لو عثرت دابة بضفاف دجلة، لخشيت أن يسألني الله عنها».

فهل نحاسب أنفسنا كما كان يحاسب سيدنا عمر نفسه؟ وكم نحاسب أنفسنا في الليل وقلوبنا مشغولة بأمور الدنيا في النهار؟

وأثناء محاسبة النفس تظهر صفة تطمئن قلب الإنسان وتبعث فيه السلام، ألا وهي صفة «القناعة».

---

٤٠ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.



فالقناعة كنزٌ لا يفنَى، وغِنى القلب على قدر القناعة. والقنوع يعلم كيف يكتفي بما لديه، ولا يطمع بالمزيد، وهذا ما يريح قلبه ويرضيه إذا نزلت عليه الهموم. ولكن هذا لا يعني الكسل والإعراض عن السعي والعمل، بل المقصود هنا العمل بالحدود المشروعة ثم الرضا بما قسَمه الله تعالى. والراضي بما لديه يسعى ليعين غيره على قدر استطاعته، وأما الذي لا يقنع بما لديه فيطلب المزيد، ولا يعين غيره، بل ينتظر غيره أن يعينه.

لقد كانت هذه الفضائل السامية التي ذكرناها هنا وغيرها منتشرة في مجتمع عصر السعادة أي مجتمع رسول الله ﷺ، فقد كان مجتمعًا يتوق للوصال مع الله تعالى، مجتمعًا حلَّت فيه بركات معرفة الله تعالى ورسوله حقَّ المعرفة. ولم يكن في قلوب الناس آنذاك منفعة دنيوية أو حرص على ملذاتها، ولم تكن أنفسهم وأموالهم إلا في سبيل الله ورسوله، وكانوا يتلذذون بالإيمان والطاعة. وصارت خدمة مخلوقات الله أسلوب حياة لهم، وكانت غاية الصحابة الكرام ومقصودهم الاقتداء بأحوال رسول الله ﷺ، وأطاعوا أوامر الله ورسوله في كل حال.



عاش الصحابة الكرام في عصر النبي ﷺ في قناعة، ولم يكن فيهم استهلاك مفرط ولا بذخ ولا إسراف ولا تفاخر، وأدركت قلوبهم حقيقةَ أن هذه النفس مآلُها إلى التراب، ولم يكن في قلوبهم إلا حب الله ورسوله. ولمَّا أقبل المجتمع الجاهلي على الإسلام والإيمان، بلغ ذروة الحضارة. وكان الصحابة الكرام يتساءلون: «كيف يريد الله أن نكون؟ ماذا يريد رسول الله أن يرى فينا؟» كانت حياتهم قائمة على رضا الله سبحانه وتعالى، وعمَّت فيها الرحمة والرأفة، وأُقيمَ الحق والعدل. وكانت أجمل لحظات حياتهم حين بلَّغوا دِينَ الله للناس، فعلينا اليوم أن نتبع تلك القافلة العظيمة فنصل إلى أعلى درجات الروحانية، ونسعى للوصول إلى الطمأنينة والسلامة في مجتمعنا.

وعلى الوالدَين أن يحرصا على هذه الفضائل ويربِّيا أولادهما عليها، ويتجنَّبا التفريق بينهم، فيقيما العدل بين الأولاد ذكورًا وإناثًا. وقد يعجز الإنسان عن وضع حد لمحبته لغيره، ولكن عليه ألا يُظهِر فرقًا في انعكاس محبته على غيره، فإذا اشترى الأب شيئًا لولد، فعليه أن يشتري شيئًا لأخيه، وإذا قبَّل أحدهم، فعليه أن يقبِّل

الآخر، أي على الوالدَين أن يحذرا من زرع بذور الغيرة والحسد بين الأولاد.

وعلى الإنسان أن يختار جيرانًا طيِّبين له، ويحذر من علاقته مع الجيران والأقارب من ذوي الأخلاق السيئة البعيدين عن الدين، أي لا يعرِّض أهله وأولاده للتهلكة حين يعظ الآخرين ويحذرهم.



خاتمة

إن حياة الأسرة التي بدأت بخلق الإنسان هي بلا شك أوضحُ مرآة تحدِّد النتيجة التي سنصل إليها في طريقنا إلى الخلود، لأن الأسرة هي أول مدرسة وأول محبة وأول مشاركة وأول سعادة وأول جنة تهذِّب مشاعر الإنسان وإرادته أي عقله وقلبه في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة.

لذلك لا بد أن تعود الأسرة المباركة إلى هويتها الأصيلة من كل جانب، وأن تكون أقدسَ المؤسسات في حياتنا. وينبغي ألا تؤدي الصحبة التي تدوم عمرًا كاملًا في الأسرة إلى السأم، ولا يقلَّ شأن طرف لدى الطرف الآخر، لا بل كلما مرَّت السنوات، ازدادت العلاقة بين الطرفَين جمالًا وحسنًا وعظمَت قيمتها ورُفِع شأنها.

ومن أجل ذلك علينا أن نعيد النظر إلى الأسرة، فهذه المؤسسة المقدَّسة ليست فندقًا ولا مكانًا للغفلة، بل هي حديقة تُجمَع فيها ثمرات المحبة والمشاركة والخدمة المسخَّرة لرضا الله تعالى.



أي إن الأسرة ينبغي ألا تؤدي إلى حياة يهرب بسببها الأولاد ووالدَيهم بعضهم من بعض في يوم المحشر، بل تكون سببًا للشوق للاجتماع في ظلال الجنة. فعلى الإنسان أن ينتبه إلى أقواله وأفعاله التي تنفِّر أفراد الأسرة بعضهم من بعض، ويسعى إلى حياة تجعل بعضهم شفعاء لبعض في الآخرة. وقد قال رسول الله ﷺ:

«كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تُبعَثون، وكما تُبعَثون تُحشَرون»[٤١]

فإذا قامت الأسرة على أسس سليمة، كانت فوزًا عظيمًا في الآخرة، ووسيلةً لإحياء الفضائل في المجتمع في الدنيا.

نسأل الله تعالى أن يكرمنا بأُسَر سليمة، ويجمع أمتنا لا سيما شبابنا بالإيمان والحكمة والمحبة والإيثار والتضحية والخدمة، ويكرمنا بالفاتحين الذين يتربون وينشؤون في أسر سعيدة....آمين!

---

٤١ المناوي، فيض القدير، جـ٥، ص٦٦٣.



فهرس



....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....